الباب الأول

نظام الحكم
وسياسة توزيع الثروة

- اتجاه الاسلام .
- الديمقراطية والراسمالية .
- اتجاه الفلسفة الوضعية .
- الاشتراكية الغربية .
- فى التطبيق الاشتراكى الماركسى فى المجتمع الاسلامى .
- فطرة الله التى فطر الناس عليها .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

اتجاه الإسلام

رسالة الانسان على الأرض :

ان الاسلام ينظر الى « الانسان » نظرة طبيعية ، تساير فطرته وطبيعته وتقر خصائصه التى له والتى يتميز بها عن الكائنات الأخرى الموجودة فى محيط الحياة الأرضية التى يعيشها وكلف بالقيادة فيها .

يرى الاسلام طبيعة « الانسان » طبيعة غريزية عقلية ، لها غرائز تدفعها بلا شعور ، ولها عقل يفكر ، ويرجح ، ويختار ، قبل أن يدفع نحو العمل والسلوك .

كما يرى أن أقوى الغرائز فيه غريزتا « **النسل** » و « **الاقتناء** » ... اذ عليهما يقوم بقاء الانسان فى شخصه ونوعه . والبقاء الانسانى والمحافظة عليه أهم هدف للانسان ، اذ به ترتبط رسالته فى حياته ، وهى نصرة الحق على الباطل .

والصراع بين الحق والباطل ، كهدف للانسان فى الحياة

● تصور الآية القرآنية :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على البـاطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »(١)

---

(١) الأنبياء : ١٦ — ١٨

● وتزيده وضوحا « قصة آدم » وخروجه من الجنة ، على نحو ما جاء فى « سورة طه » :

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى . فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تظما فيها ولا تضحى . فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فاكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو (الخطاب لآدم والشيطان) ، **فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »(١) .**

* * *

فما جاء أولا فى « سورة الأنبياء » حدد **« الهدف من خلق العالم » ...**

وحدد أن خلقه ليس للهو واللعب وانما لما هو أعظم شأنا ، وانما هو **ممارسة الصراع فيه بين الحق والباطل** ، ثم نصرة الحق على الباطل أخيرا نصرا مبينا ، حيث ينتهى أمر الباطل ولا تقوم له قائمة بعد ذلك .

والآيات الأخرى التى تحكى قصة آدم فى « سورة طه » تصور :

● **أن طرفى الصراع فى قضية الحق والباطل هما :** « الانسان .. والشيطان »

● **وأن كلا منهما عدو للآخر : « بعضكم لبعض عدو »**

● **وان على الانسان لكى يكون ايجابيا فى نصرة الحق أن يهتدى بهدى الله :**

---

(١) طه : ١١٥ ــ ١٢٧

« فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى »(١) .

● أما **« الشيطان »** : فقد عصى ربه من أول الأمر فغوى ، وتحدى فى عصيانه وغوايته أن يسعى ما أمكنه الجهد لصرف الناس عن الهداية . وسأل ربه — على نحو ما تذكر الآيات الآتية — لينظره كى يريه من يضلهم عن سبيل الله :

« قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك لعنتى الى يوم الدين . قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين »(٢) .

ومدة وجود السموات والأرض — الى يوم البعث — تعتبر كأنها المسرح الزمنى لصراع الحق مع الباطل .

● وكان **« الانسان »** منذ أن نزل إلى هذه الأرض ووجد عليها مطالب بأن يكون فى جانب الحق ونصرته الى موته ، والى بعث الناس جميعا . ومطالب بأن يبذل جهده فى جانب الحق فى غير انقطاع وفى غير تراخ .

وحياة الانسان فى الدرجة الأولى اذن ليست حياة أكل ونسل . وانما اصلا هى حياة كفاح وصراع ومقاومة .

أما الأكل والنسل فضرورتهما للانسان أنه يتمكن عن طريقهما من الاستمرار فى الكفاح والصراع والمقاومة ، وهو هدف انسانيته فى وجوده على هذه الأرض .

● و **« الأرض »** .. هى الميدان التى يشاهد عليه الحق والباطل كطرفى نقيض !

---

(١) طه : ١٢٣ (٢) سورة ص : ٧٥ — ٨٥

تشاهد عليه : الهداية والضلال فى حياة الانسان ... والغواية والافساد فى مهمة الشيطان .

ولن تخلو الأرض من حق وباطل معا .. ولن تكون حياة الانسان الى الهداية خالصة ، أو الضلال خالصا .

ولن ينصرف الشيطان عن عمل الغواية والاغراء والعبث والفساد .

فالانسان ليس مخيرا بين الهداية والضلال ، بل هو مطالب بالوقوف الى جانب الهداية لنصرة الحق .

والشيطان ليس مخيرا فى الانصراف عن الاغواء والاضلال ، بل الزم نفسه بالتحدى فى الاغواء والاضلال ، وقبل منه رب السموات والأرض هذا التحدى منذ أن أرجأه الى يوم البعث اى طيلة وجود الانسان فى حياته الأرضية . والاغواء والاضلال مقدر على الشيطان وضرورة فى وجوده لا يمكنه التخلف عنه .

والشيطان فى مباشرته لمهمته : **يباشرها فى حياة الأفراد** بترجيح جانب الغرائز فى تصرفاتهم على حكمة العقل ومنطقه فى التوحيد والقيادة .

وفى مباشرته لهذه المهمة فى **حياة الأمم والمجتمعات** : يباشرها بطغيان الطغاة واستبداد الأقوياء بالمال أو الشرف أو الجاه أو العصبية .

ورسالات الرسل — هى لذلك : فى تبصير الأفراد بمكان قيادة العقل فى حياتهم ، وبنتائج جنوح الغرائز من أضرار نفسية وبدنية تؤذيهم وتقلقهم .

وفى تبصير المستضعفين فى الأرض بمكانهم فى الحياة وباعتبارهم الانسانى ، وبحقوقهم الفطرية فى الحياة ، مع مطالبة الأفراد بالاعتدال فى الاستجابة الى غرائزهم ، ومطالبة المستضعفين بالثورة على الظلم والطغيان والاعتداء ضد الطغاة والأقوياء والمستبدين .

● و « **رسول الله** » — أى رسول ... هو برسالته هاد ومرشد

و « **كتاب الله** » ... هداية وارشاد .

ورسالة السماء فى عمومها ثورة على الباطل من أجل الحق ، وعلى الاضلال والغواية من أجل الهداية . **والمؤمنون برسالة الله هم جنود الثورة الالهية** يفدونها بأموالهم وأنفسهم .

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »(١) .

اعداد الانسان فى طبيعته للرسالة :

والانسان اذن لكى يناضل ويكافح من أجل الحق ، ويدفع غواية الباطل واضلاله لابد أن يحافظ على بقائه فى حياته الفردية ، وعلى استمرار نوعه الانسانى . والمحافظة على البقاء فى كلا الجانبين تدفع اليه غريزة فيه وفطرة من فطر طبيعته .

ولكى يحفظ الانسان على بقائه محافظة سهلة وتلقائية — كان من غرائزه الأخرى التى أعد بها :

- غريزة التملك والاقتناء
- غريزة النسل أو الجنس

أما غريزة التملك والاقتناء : فهى لدفع تهديد البقاء الشخصى أو الفردى .

وأما غريزة النسل أو الجنس : فهى لدفع تهديد النوع الانسانى بالفناء والانقطاع .

وغريزة التملك والاقتناء هى تلك الغريزة التى تدفع الانسان الى المال : فى السعى اليه وتحصيله ، وتنميته ، وادخاره .

كما أن غريزة النسل تدفعه الى الاتصال بالجنس الآخر فى سبيل النسل والأولاد .

واذا نحن نقرأ قول القرآن الكريم :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ،

---

(١) الحجرات : ١٥

والله عنده حسن المـــآب . قل أونبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد »(١)

اذا نحن قرأنا هذه الآيات نرى أن الاسلام يقر وجود هاتين الغريزتين فى الانسان .

● يقر « غريزة الجنس والنسل » فيما ذكره هنا فى هذه الآيات من حب النساء والأولاد .

● ويقر كذلك « غريزة التملك والاقتناء » فيما ذكره هنا كذلك من حب الذهب والفضة وما يقتنى لضرورة الحياة ومتعها من انتاج الأرض والحيوان .

وكأن هاتين الغريزتين فى نظره هما الغريزتان الأساسيتان فى الانسان . لأنه وصف مطلوبهما وما يدفعان اليه على سبيل الحصر ـــ بأنه متاع الحياة الدنيا فقال : **« ذلك متاع الحياة الدنيا »** ..

وهذه الجملة : **« ذلك متاع الحياة الدنيا »** .. تعقيب بعد تفصيل لمـــا يميل اليه الانسان فى حياته ويحرص على الاكثار والمزيد منه .

ولكن القرآن فى هذه الآيات لم يقصد قصدا مباشرا الى اقرار هاتين الغريزتين فى الانسان . اذ لو قصد مباشرة الى ذلك لكان مقررا لأمر واضح فى نفسه لا يحتاج الى اقرار .

وانما قصد الى الترغيب عن المبالغة فى الاستجابة الى ما تطلبه هاتان الغريزتان ، وذلك بالمفاضلة بين ما عند الله فى آخرته من رضوان ونعيم مقيم دائم من جانب ، وما يشتهيه الانسان من النساء والأولاد ـــ وهو أزيد مما يطلب لحاجة غريزة الجنس ـــ وما يكتنزه من ذهب وفضة ويقتنيه من صنوف ممتازة من الحيوان من جانب آخر .

ولذلك كان تعبيره :

« زين للناس حب الشهوات من النســـاء والبنين » بدلا من أن يقـــول « زين للناس حب النساء والبنين » .

---

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥

اذ التعبير الثانى أمر فطرى عادى ، بينما الأول — كما جاء فى القرآن — تظهر فيه المبالغة والخروج عن المألوف فيما تطلبه غريزة الجنس .

وكان تعبيره أيضا :

«... والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ...».

أى زين للناس حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، كما زين لهم كذلك حب الخيل المسومة . وذلك بدلا من أن يقول مثلا : « زين للناس حب الذهب والفضة والخيل ... والأنعام ... » دون ذكر : « القناطير المقنطرة » بجانب الذهب والفضة ، وبدون ذكر أيضا : « المسومة » فى وصف الخيل.

اذ لا شك أن التعبير الذى جاء به القرآن واضح فى المبالغة فى تركيز النشاط على ما تطلبه غريزة التملك والاقتناء هنا .

فالانسان فى حياته وفى كفاحه ليس فى حاجة الى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، وانما حاجته الى الايمان يجب أن تكون أشد من حاجته الى الذهب والفضة أصلا ، وحاجته الى الذهب والفضة يجب أن تكون بمقدار ما يعيش ويتمكن من الكفاح عن طريقه .

وكذلك ضرورة أداء رسالته فى الحياة ليست متوقفة على اقتناء نوع متميز من الخيل والأنعام . وانما طلب المتميز منها هو دائما لمتعة زائدة عن حاجة الغريزة فى الانسان ، التى هى غريزة التملك والاقتناء .

واذن ذكر : « القناطير المقنطرة » فى جانب المال ، وكذلك ذكر « المسومة » فى جانب الخيل للدلالة على خروج الانسان بطلب غريزته الى غير المألوف .

وغير المألوف هو الجنوح والميل الى الانحراف .

أصول النظرة الاسلامية :

واذا أردنا الآن أن نحدد نظرة الاسلام الى المال فنظرته اليه لا تخرج عن أنه يراه أمرا ضروريا وطبيعيا فى الوقت نفسه فى حياة الانسان : يسعى الانسان الى تحصيله بحكم فطرته وغريزته .

وكذلك بحكم رسالته الانسانية فى حياته الأرضية .

وتحريم اقتناء المال على الانسان فى حياته أمر غير طبيعى ، وهو مناوىء لفطرته وجبلته ، ومعوق له عن أداء رسالته ، أو معوق له عن ممارسة انسانيته فى وجوده الأرضى .

وأى نظام سياسى للحكم يحرم الملكية الفردية أو الاقتناء جملة هو نظام غير طبيعى ، ويتجاهل فطرة الانسان وغرائزه .

ومن ثم تنتظر معارضة الانسان لهذا النظام ومقاومته اياه . فالثورة ضده والانقلاب عليه .

والاسلام لأنه الدين المساوق للطبيعة البشرية يستحيل عليه أن ينكر حق الملكية الفردية ، أو ينفر من تحصيل المـال والسعى الى تنميته .

المـال ينطوى على الفتنة :

ولكن فى الوقت الذى ينظر فيه الاسـلام الى المـال على أنه ضرورة للحياة البشرية ، وضرورة غير مباشرة فى رسالة الانسان على الأرض لنصرة الحق على الباطل ، ومكافحة الشرور والاعتداء والطغيان فى علاقات الأفراد — ينظر اليه كذلك على أنه ينطوى على الاغراء ، بحيث لو استحوذ على انتباه الانسان ، وتمكن من تسخير طاقاته البشرية لجمعه وتحصيله . ربما يقوده الى الانحراف ، والعبث والافساد .

أو الى الطغيان واهدار بشرية من لا يملك المـال .

والانسان تحت تأثير الغريزة اذا لم يتدخل توجيه العقل فى تهذيبها ، ينساق الى أهدافها فى غير رعاية لحرمة أحد أو كرامته ، حتى لحرمة نفسه وكرامتها ، يقول القرآن الكريم فى تصوير أثر غريزتى الاقتناء والنسل عند الافتتان بهما والوقوع تحت تأثيرهما :

« الهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر »(١)

ثم يقول فى أثر تدخل التوجيه فيها :

« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »(٢) .

فهذه الآيات جميعها تصور ما ينساق اليه الانسان بحكم فطرته الغريزية وحدها ، من غير رقابة للعقل وتدخله فى توجيهها . فتكاثر المـال ، وتكاثر الأولاد ، وتكاثر متع الحياة الأخرى هو الغـاية التى تملك على الانسـان

---

(١) التكاثر : ١ ، ٢ (٢) المعارج : ١٩ — ٢٥

تصرفاته وسلوكه وتسخر طاقاته وامكانياته اذا لم يتداركه توجيه العقل وهداية الدين .

ولذلك نرى القرآن الكريم يضع هذه الحقيقة سافرة أمام الانسان :

وهى حقيقة الضرورة الى المـــال ... وكونه مصدر اغراء .

ولكن كعادته فى الأسلوب لا يؤكد ما هو مقرر بمقدار ما يؤكد ما هو مرتقب ومنتظر ، وما هو مقرر هنا ضرورة المـــال فى حياة الانسان ، وما هو مرتقب هو الوقوع تحت اغرائه والانسياق فى طريق الانحراف تحت تأثيره.

اذ الأمر المقرر لا ترتاب فيه النفوس ، بينما المرتقب والمنتظر قد تنكره النفوس تارة وقد تتردد فيه على الأقل تارة أخـــرى ، ولاســـيما اذا كان له بريق يجذب ويخدع .

واذ يقول القرآن فى موضع آخر :

« المـــال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »(١) .

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(٢) .

- يريد أن يصف فى **الآية الأولى** : المـــال بأنه زينة الحياة الدنيـــا ،
- ويستنكر فى **الآية الثانية** : أن تكون زينة الحياة الدنيا محرمة .
- ويؤكد هذا الاستنكار بالاخبار على سبيل القطع فى **آية أخرى** ، فى سورة الكهف بأن كل زينة للحياة الدنيـــا مبـــاحة اباحة تامة لمن يحســـن استخدامها . والذى يحسن استخدامها هو المؤمن ، لأنه هو الذى ان مر بالابتلاء فلن يخدعه المـــال ولا الولد :

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »(٣) .

والتعبير عن المـــال بأنه زينة ، ليبين فقط وجه الاغراء فيه ، وليس لرفع أهميته كعنصر أساسى فى حيـــاة الانســـان ، وكضرورة حتمية لتمكين الانسان من أداء رسالته فيها .

* * *

---

(١) الكهف : ٤٦ (٢) : الأعراف : ٣٢

(٣) الكهف : ٧

واذا نقرأ بالاضافة الى ما سبق هذه الآيات الآتية نجد القرآن قد كشف عن اغراء المال كشفا صريحا ووصفه بالفتنة بعد أن وصفه فيما سبق بالزينة ، ليؤكد معنى الاغراء فيه :

● **« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم »(١)**

● **« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ... »(٢)**

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »(٣)

● **« انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم »(٤)**

* * *

وليس أدل على فتنة المال واغرائه من أن بعض الذين أسهموا من أول الأمر فى بناء الأمة الاسلامية واقامة مجتمعها على اصول من دعوة الاسلام ولاقوا فى سبيل ذلك المشاق — أن تأثروا بالمال فانصرفوا قبل حسم المعركة فى « أحد » . وكان هذا الانصراف سببا فى قتل المسلمين وهزيمتهم فى هذه الموقعة .

ويصور ذلك قوله تعالى :

« ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من

---

(١) الأنفال : ٢٨ (٢) الحديد : ٢٠
(٣) المنافقون : ٩ (٤) التغابن : ١٥ — ١٧

يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين »(١)

وانه وان كانت الآية توضح فى آخرها أن وقوع ذلك كان للابتلاء والاختبار ، حتى تكون النفوس بعد ذلك فى المواقف المماثلة مع الأعداء أكثر استعدادا للتضحية بمتعها وشهواتها فى سبيل القيم العليا للأمة والمجتمع — الا أنه يدل على أن الطبيعة البشرية — لو تركت وشأنها دون أن تكون لها يقظة بأهدافها الرفيعة — عرضة للخضوع لفتنة المال وتأثيره .

وفى آية أخرى فى قول القرآن الكريم :

« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم »(٢) .

يعتب الله جل شأنه على ايثار المنفعة المادية بقبول فداء الأسرى بالمال على التمكين للدعوة والقائمين بأمرها بالقضاء على عناصر العداء والمقاومة ، مما يوضح أن المال قد يرجح ضغطه على النفوس فى وقت هى أحوج فيه الى الصبر على الأزمات كى يكون لها الأمر كله بعد اجتيازها .

واذا وجد المسلمون أثناء تكوين مجتمعهم فى أول تكوين له « وحى الله » يباعد بينهم وبين فتنة المال عندما تشد وتجذب الأنظار والهواجس نحوه — فان كتاب الله هو الكفيل بعد ذلك بالقيام بهذه المهمة فى كل جيل انسانى . وفى كل بقعة من بقاع الأرض طالما بقى « الايمان » به ايمانا يحرك النفوس ويوجهها .

فليس هناك تعادل بين المال والقيم العليا فى التأثير على الانسان ، الا اذا كان هناك ايمان بالقيم يساعدها أولا الى مستوى التعادل ثم بعد ذلك يرفعها فوقه ويرجح جانبها فى تصرف الانسان .

دفع اغراء المال وفتنته :

والذى يبدو فى مجموع الآيات التى ذكرت هنا أن أسلوب القرآن فى وصف المال يؤكد — كما ذكرنا — وجه الاغراء فيه أكثر من ضرورته للحياة . لأن ضرورته فطرية وجبلية لا تحتاج لا الى تقرير وتأكيد ولا الى كشف عنها كذلك ، اذ الانسان مدفوع دفعا طبيعيا غريزيا لاشعوريا لتحصيل المال واقتناء الملك .

---

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) الأنفال : ٦٧

كما يبدو من هذا الأسلوب القرآنى أيضا أن كتاب الله بعد أن وصف المال بالفتنة فحذر من الوقوع تحت اغرائه أتاح الفرصة لمن عنده المال أو عنده وسائل جمعه وتحصيله وتنميته فى غير عناء — كى يتخلص من الاغراء بالفعل ، وكى يؤمن نفسه مستقبلا من أن يقع تحت اغرائه .. فرغب فى **الانفاق فى سبيل الله** بما طواه هنا تحت قوله تعالى :

● **« وأن الله عنده أجر عظيم »(١) .**

وتحت قوله أيضا :

● **« ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم »(٢) .**

وما طواه هنا يذكره صراحة فى آيات أخرى ، مثل قوله تعالى :

● **« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٣)**

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير »(٤)

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم »(٥)

● **« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم »(٦)**

---

(١) الأنفال : ٢٨ (٢) التغابن : ١٧

(٣) البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ (٤) البقرة : ٢٦٥

(٥) البقرة : ٢٦٧ ، ٢٦٨ (٦) آل عمران : ٩٢

● ((ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم))(١)

● ((يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عـذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون))(٢) .

التعويض عن الانفاق :

فقد رغب القرآن فى الانفاق صراحة ، بحيث يقبـل من المنفق أن يخرج عن جميع ما زاد عن حاجته وهى أمر معاشه ، ويتيح له الفرصة كـذلك لانفاق العفو بعد ذلك فى سبيل الله .

ونرى فى اتاحة الفرصـة التى أتاحها القرآن هنا فى مثل هـذه الآيات لابعاد المـال عن أن يكون فتنة لمـالكه من شأنها أن تحمله على الانحراف به والطغيـان عن طريقه والاضرار بسببه ـ أنهـا لا تنطـوى على « معنى التعويض » فحسب ، وانما جعلت من العوض والمقابل ما لا يستطيع الانسان أن يصل اليه بالطريق العادى فى المعاملات العادية كبيع وشراء ، وقرض ، وتجارة ، وبأساليب السعى المختلفة .

لأن سبيل الله ومرضاته يتعلقـان بجانب الله سبحانه وتعـالى . والانسان الذى ينفق فى سبيل الله وابتغـاء مرضـاته **يتعامل مع الله وليس مع انسان مثله .**

ولذلك تخرج المعاملة عن وضعها العادى ، ويصبح المقـابل ــ وهو ما كان من جانب الله ــ ذا شأن غير عادى أيضا . ونتيجة المعاملة حينئـذ للانسان المتعامل مع الله ، نتيجة مرموقة ، وتعتبر فوزا عظيما له .

وهذا الطريق فى حمـل النفس على التخلص من المـال الزائد عن الحاجة يدفعها فى اطمئنان وفى رضا ــ بل ربما فى تلهف وتطلع كذلك ــ الى الانفاق فيما حـدد هنا ، بحيث يصبح الانفاق عادة مرغوبا فيهـا ، أو بحيث يصبح هذا الانفاق طبعا ثانيا للنفس . وما كان طبعا لا يصـادفه عناء ، ولا يحتمل معنى الاكراه أو الكره .

---

(١) التوبة : ١١١   (٢) الصف : ١٠ ، ١١

سبيل الله والمصلحة العامة :

وسبيل الله هو « المصلحة العامة للأمة » أو المجتمع .. سبيل الله هو ما ارتفع فوق مصلحة أشخاص معينين محددين .

والفقهـــاء فى تعبيرهم عن : « **حق الله** » و « **حق الشخص** » يعطون نفس المفهوم لحق الله للمصلحة العامة ، ويتعمدون فى تمييزه بذكر المقابل له وهو حق الشخص ، أى حق فرد على سبيل التعيين .

والمصلحة العامة للأمة أو للمجتمع هى كل ما يحفظ عليهـــا تماســـك جماعتها ووحدتها ، ويقيها عدوان أعدائها ، ويحقق لها قيمها وأهدافها ، ويصون علاقات أفرادها من الاحتـــكاك والمنـــازعة ، ويرفع حقد النفـــوس وتآمرها ، ويسبب لها الاستقرار والســـلام ، ويهيىء لها فرص العمـــل والسعى .

ومن أجل ذلك حدد ما ينفق هنا فى هذه الآيات :

● **بأنه من طيبات ما يكسبه الانسان ، ومما تخرجه الأرض :**

« .. أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض »(١)

● وأنه مما يحبه الانسان :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »(٢)

● كما طلبت نفس الآيات أن يجتنب الخبيث فلا يقصـــد للانفاق منه ، وبالاضافة الى ذلك لا يتبع ما ينفق بالمن والأذى المعنوى .

« ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون »(٣) .

« ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى »(٤) .

اذ أن هذا النوع المحدد هنا لمـــا ينفق هو وحده الذى يحقق المصلحة العامة وما عداه لا يحقق الا أذى وأضرارا ووهنا فى العلاقات . فمن يصيبه الخبيث أو من يلحقه المن والأذى لا يضمن الا حقدا ، ولا يشـــارك الا فى تبييت سوء .

---

(١) البقرة : ٢٦٧ (٢) آل عمران : ٩٢

(٣) البقرة : ٢٦٧ (٤) البقرة : ٢٦٢

● أما العوض أو المقابل الذى سيصيبه المنفق على هذا النحو فقد حددته جملة الآيات الأولى فيما سبق هنا فى هذا المجال **بوعد الله بتنمية مال المنفق تنمية مضاعفة ، ولن يخلف الله وعده .**

ولكى يؤكد القرآن هذا — ازالة للهواجس التى من شأنها أن تراود النفس من النقص المادى المحسوس للمال اذا ما أخرج منه قليل أو كثير لينفق فى مصلحة عامة — قال :

● « **الشيطان يعدكم الفقر** »(١) ... بسبب الانفاق المطلوب .

● « **ويأمركم بالفحشاء** »(١) ... كظاهرة عامة منه بسبب الانفاق المطلوب .

● « **والله يعدكم مغفرة منه** »(١) ... لهذه الهواجس التى تتردد فى النفس ، لأن ذلك شأن الطبيعة البشرية .

● « **وفضلا** »(١) ... أى نعمة فى صورة ما لقاء الانفاق والاخراج فى سبيل الله .

● وبالاضافة الى هذا العوض وزيادة عليه فقد أمن الله المنفق فى سبيل الله على أجره عند ربه فى الآخرة ، وجزائه فيها جزاء حسنا .

● كما أمنه ضد الخوف ، والحزن ، والهموم فى دنياه :

« **الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »(٢) .

ومضاعفة المال التى وعد بها الله هنا المنفق فى سبيل الله ليس بلازم أن تكون مضاعفة عددية أو مادية — بل ربما تكون المضاعفة نوعية . تكون المضاعفة فى أثر الباقى منه ونفعه بالنسبة للمنفق ومن ينفق عليهم ، ويقر عينيه بما له وبمن له فلا يقلق ، ويبعد عنه — لذلك — الخوف والحزن .

● واخيرا انه بهذا الانفاق **جعل من نفسه انسانا يعيش لنفسه وغيره ، ويرى ثمرة ما أنفق على غيره ، كما يراها على نفسه ومن يعول .**

فمجال نفعه أصبح مضاعفا ، وثمرة عمله اتسعت رقعتها ، وانسانيته ظلت ميدانا أفسح .

---

(١) البقرة : ٢٦٨ (٢) البقرة : ٢٦٢

فممن يخاف اذن ؟

من أين يأتيه الهم والحزن والقلق ؟

من يحقد عليه ويصيبه بأذى حقده ؟

من لا يرعى حرمته فى نفسه وفى ماله الباقى وعرضه ؟

ان المنفق فى سبيل الله انسان قد أمن الحزن والخوف حقا ... انه عندئذ قد تضاعف ماله — ولم ينقص منه شىء بما أنفق — بتضاعف أثره ونفعه !

وطبعا لا يصل انسان الى الانفاق فى سبيل الله طواعية وفى حرية ورغبة ، ولا يصل بانفاقه الى درجة الأمن من الخوف والحزن فى حياته التى يعيشها على هذه الأرض الا اذا كان مؤمنا صادقا فى ايمانه بالله ، والا اذا جنب نفسه تأثير المادية فى شدها وضغطها .

ان الايمان الصادق بالله لا يجعل انفاق المال الزائد عن الحاجة فى سبيل الله أو فى سبيل المصلحة العامة أمرا محببا فحسب وأمرا يسير اليه المؤمن فى طواعية وفى رجاء وفى أمل فقط .

● بل قد يصل به الى أن يرى أن **المال الذى بيده تعلق به حق الآخرين من أصحاب الحاجة فى مجتمعه وأمته :**

« ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(١)

فهذا الذى رأى فى ماله حقا لغيره .. وليست الدولة هى التى فرضت عليه ذلك

انه المحب فيما ينفق ... وليس انفاقه بالقسر والاجبار عليه !

انه الانسان المختار فيما يعطى ... وليس الانسان المكره !

انه الراضى عن أمسه المتفائل بيومه المشتاق الى غده ، وليس الحزين فى أمسه ، والقلق فى يومه ، والمتشائم فى غده !

* * *

(١) الذاريات : ١٥ — ١٩

ان « المـادية » الخالصة تعد بالفقر اذا ما أنفق الانسان من ماله بدون مقابل شخصي أو مادى آخر ، كما يعد الشيطان بذلك !! انها تكفر بالله وتسخر من الايمان به كما يستهزىء الشيطان ويسخر !!

انها لا ترى الا العدد والكم ... انها تخطط وتمعن فى التخطيط المادى ، ولكنها لا تصل — ولن تصل — الى نتيجة ما خططت ورقمت ، لأنها تجاهلت جانبا آخر فى نفس الانسان ، وهو الجانب الانسانى الخالص : جانب القيم العليا ، والارتفاع بالتصرفات الانسانية والسلوك الانسـانى فوق الذات والأنانية : هو جانب الروح وجانب الايمان بالله .

وهذا الجانب — وهو جانب الروح والايمان بالله — هو جانب الدفع الذاتى الذى لا يحتاج الى رقابة خارجية ، ولا الى الاغراء بالبديل المـادى والمنفعة الشخصية .

« للمادية » أن تسخر من « الروحية » .... ولكنها عندئذ تسخر من الانسان نفسه وقيمه !

« للمادية » أن تسخر من « الايمان بالله » ...ولكنها تجهل حقيقة أمر هذا الايمان ومدى تأثيره فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض !

ان المـادية « حسية سطحية » فى نظرتها .... لم تر العمق فى نفس الانسان ، واعتقدت أنها « بالمحسوس » وحده يمكن لها أن تسـوس ، وأن تنظم ، ولكنها تسوس وتنظم الناس كما يسوس الانسان قطعان الحيوان وينظمها : أكل وشرب ، ومعدة وفرج ، هو أساس السياسة والتنظيم !!

ان « الله » جملة من « القيم العليا » كونت ذاتية ذاته ، وليست ذاته خارجة عن هذه القيم ، وليست هذه القيم اضافات عارضة الى ذاته ....

وان عبادته تعلق بهذه القيم ، وارتفاع اليها ، ومحاكاة لها فى السلوك والتصرف . ان الله ليس بانسان .... ولا بكائن محس .

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(١)

« ليس كمثله شيء »(٢) .... فى الأرض ولا فى السماء !

انه جملة هذه القيم .... وان عبادته ، احترام وانحناء ، وخضوع لهذه القيم ، وعمل يقرب منها .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ (٢) الشورى : ١١

وجود الله لذلك ليس وجودا مؤقتا ، وعبادته بالتالى ليست عبـــادة مؤقتة ، انه الدائم .. ان عبادته لا تنقطع .. ان عبـــادته هى التـــوجيه السليم للغرائز .. انها صمام الأمان من الانحراف والفساد والطغيان .

ولأن المـــادية « سطحية » فى نظرتها استخلصت من ضعف رجال الدين فى أفهامهم له وعملهم بمبادئه ضعف الدين نفسه فى التوجيه .

كما استخلصت من تعلق الناس بالدين وبالاعتقاد به رغم عدم وجود أثر صالح له فى حياتهم أفرادا أو مجتمعات ـــ أنه نفسه « مخدر » !

ومن ثم خططت لترويج الالحاد والسخريةبالقيم الدينية وبرجال الدين، كى يتسع الفراغ للايديولوجية التى تحتضـــنها . وهى ايديولوجية البطن والفرج ، دون الروح والقلب . هى ايديولوجية الجانب الحيوانى المـــادى فى الانسان ، وليس الجانب الانسانى فيه !!

ولكن صنع الأيديولوجيات لا يقوم على سطحية فى النظرة ولا على استخلاص عابر من ظواهر اجتماعية قد يكون لها أكثر من سبب فى نشأتها وبقائها !!

ان صنع الأيديولوجيات نفسه فلسفة ترتكز على وعى وعلى عمق ميه ، وعلى احاطة بأطراف موضوع التفكير !!

ومسايرة المنطق الفلسفى تقضى بأن الدين شىء ورجاله شىء آخر ، وأن ما يقع منه وباسمه فى التطبيق قد يغاير مغايرة جزئية أو تامة لمـــا توحى به مبادئه .

وتبعا لهذا المنطق لا يجـــوز أن يكفر الانســـان بالدين الا اذا كان فى مبادئه ما يعارض الطبيعة البشرية ، أو يعوق سعى الانسان نحو اطمئنان نفسه وسلامة مجتمعه ، وسلامة العالم الانسانى كله .

وتبعا لهذا المنطق ايضا طالمـــا كانت لمبادىء الدين صلاحية ذاتية فى توجيه الانسان فليس من الحكمة أن ينحىالايمان به عن التوجيه . وانما ينحى عن الدين نفسه من يحترفون به أو يجهلونه ، ومع ذلك يتحدثون باسمه .. ينحى العرض السقيم لمبادئه ، والفهم الركيـــك المخـــزى للعقل البشرى ، والضعف الذى ران على قوة مبـــادئه .. لأن ذلك كله من صنع الانســـان ، على نحو ما يصنع الانسان بالمـــال ويحيله الى مصدر استغلال بشرى أو تخريب اجتماعى . وعلى نحو ما يصنع بكل موجود صالح فى ذاته للانسانية، فيحيله الى مدمر أو مهلك ، كما يصنع بالعلم اليوم وربما غدا كذلك .

من يضمن أن ثورة اجتماعية فى مجتمع ما تقوم اليوم على مبادىء سليمة وتستهدف صالح المجتمع . وتسعى لتحقيق الاستقرار فى علاقات الأفراد — ثم يأتى غدا من ينتسب الى هذه الثورة فيحترف بمبادئها أو يجهلها ومع ذلك يدعى أنه ينطق باسمها أو يعرض مبادئها فى صورة تؤدى الى النفرة منها أو الى انكارها والكفر بها ؟؟

المنطق السليم ازاء مثل هذا الوضع أن لا يلغى اعتبار مبادئها ، وانما ينحى عنها المسيئون اليها . وبذلك تعود الى هذه المبادىء سلامتها . كمريض شفى وعادت اليه صحته وقوته ونشاطه . فليس مقبولا لدى منطق أى انسان أن يدفن المريض تو اصابته بالمرض ، أو يعلن عن موته اذا ما تعرض لاصابة المرض .

الاحتياط فى وسائل انماء المال :

وليس معنى أن المال فى نظر الاسلام ينطوى على « فتنة » وانه مصدر اغراء ، أن يمتنع الانسان عن تملكه أو انمائه اذا ملكه . لأن ذلك لا يتفق مع كونه ضروريا فى حياة الانسان ، ولا مع أن تحصيله نتيجة لازمة وحتمية لسعى فطرى ودفع غريزى فى الانسان . وهو حب الاقتناء والميل الى التملك .

ولكن كون المال مصدر اغراء يوجب فقط أن يحتاط الانسان فى وسائل تحصيله أو انمائه فلا يباشر من هذه الوسائل الا ما يجنبه الضرر لنفسه والاضرار بغيره . لا يسلك منها الا ما يحفظ عليه كرامته وكرامة غيره معه .

وقد نص القرآن على وسائل بعينها يجب تجنبها فى انماء المال أو تحصيله لأن أضرارها مؤكدة لو اتبعت ، وهى فى الوقت نفسه تغرى بسلوكها وتدفع الى الأخذ بها لعدم الحاجة فيها الى جهد بشرى ، بينما يتحقق بها النماء والزيادة حتما .

وترك القرآن — بعد تحديد هذه الوسائل — الأمر لتقدير الانسان ، والى ضميره اعتقادا منه أنه طالما هو من المؤمنين بالله فلا يسلك الا ما يوصله الى خير لنفسه ، أو له ولمجتمعه معا .

اذ المؤمن على سبيل الحقيقة هو المحسن ، وليس المحسن هو من انفق المال أو ينفقه . ولكنه هو الذى راعى جانب الله ، واهتدى بهديه

بعد أن صدق بكتابه . وانفاقه للمال فى سبيل الله يقع تحت رعايته لجانب الله ، واهتدائه بهديه .

ولكن **الانفاق ليس مساويا بحال للاحسان أو مساوقا له ...**

« والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين »(١)

فعقب فى آخر الآية الثانية بأن ذلك جزاء المحسنين بعد أن وصف المصدقين بما جاء من عند الله بأنهم هم المتقون ، كما تنطق الآية الأولى ؛ وبعد أن وصفهم فى عجز الآية الثانية بأنهم المحسنون وهذا وذاك يجعل المؤمن هو المتقى وهو أيضا المحسن ونص صراحة على ذلك فى آية أخرى، فى قوله :

« أن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين »(٢)

أما هذه الوسائل المنهى عنها فهى :

● **عدم أكل أموال الناس بالباطل :**

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون »(٣)

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا أن تكون تجارة عن تراض منكم .. »(٤)

● **عدم الافادة من أموال اليتامى والضعفاء ممن أموالهم تحت وصايتهم :**

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا »(٥)

---

(١) الزمر : ٣٣ ، ٣٤
(٢) الذاريات : ١٥ ، ١٦
(٣) البقرة : ١٨٨
(٤) النساء : ٢٩
(٥) النساء : ٢

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا »(١)

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا »(٢)

● الوفاء بالكيل فيما يكال وبالوزن فيما يوزن ، والوفاء بالعهد حيثما اتفق :

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا »(٣)

● عدم مباشرة الربا :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا »(٤) ...

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم »(٥).

* * *

ويلاحظ أن هذه الوسائل الأربع التى طلب الاسلام تجنبها ، فى الحصول على المال ، أو فى تنميته .. تقوم على استغلال الضعيف وحاجته ، كما ترتكز اما على مجهود بشرى ضعيف فى تحصيل المال أو انمائه ، أو على عدم مجهود فيهما أصلا .

● **فتقديم الأموال الى الحكام** : نظير الحصول على خدمات هى من حق آخرين ، أو نظير الحصول على أموال أخرى لآخرين — هى استدانة بقوى على ضعيف ، وفى الوقت نفسه استغلال لهذا الضعيف .

---

(١) النساء : ٦
(٢) النساء : ٩ ، ١٠
(٣) الاسراء : ٣٤ ، ٣٥
(٤) البقرة : ٢٧٥
(٥) البقرة : ٢٧٦

فالحاكم لأن بيده الحكم قوى . وصاحب الحق فى التطبيق العملى قبل أن يصل الى حقه ضعيف ، لأن حقه عندئذ يمكن أن يدخل دائرة التشكيك أو التسويف : والذى قدم المـــال الى الحاكم مستعينا بسلطة الحاكم — لم يبذل من جهده البشرى شيئا ، وانما ترك الأمر الى المـــال وحده .

وهو اذ يحصل آنئذ على أموال الناس متملكا اياها يحصل عليهـــا بالباطل من وجهين :

أولا : أنه استعان بقوى على ضعيف ، واستغل ضعف الضعيف .

ثانيا : أنه أقام المال مكانه — وهو انسان — فى الحصول على مال آخر، وبذلك عكس آية الوجود . لأن الانسان هو الذى يمنح المـــال القيمة ، بما له من طاقات بشرية تجعل منه سيدا وموجها فى وجوده وحياته على ماعداه من موجودات أخرى معه . وقيمة الانسان قيمة ذاتية ، وقيمة ما عداه قيمة عرضية أو اعتبارية بالنسبة له . والمـــال على سبيل الحقيقة معادلةتساوى المجهود البشرى .

ولذلك عندما عبر القرآن عن (المـــال لدى الانسان) ... عبر عنه بقوله « بما كسب » فقال :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنـــا لكم من الأرض »(١)

فلم يكن المال استقلال ، وانما وجوده تابع لوجود الانسان ونشاطه ، وهو اذن جملة نشاط الانسان . والمـــال الذى بيـــد الانســـان وقدمه الى الحاكم ربما لم يبذل فى تحصيله أى نشاط ، بل ربما كان بالوراثة أو حصل عليه بالباطل أيضا .

واذن : أكل أموال الناس بالباطل عن طريق رشوة الحاكم ينطوى على استغلال انسان ضعيف من جانب ، ثم ينعدم فى العملية ذاتها النشاط الانسانى من جانب آخر .

ولذا ، فى آخر الآية الثانية من الآيتين اللتين نصتا على تحريم تحصيل المـــال عن طريق الرشوة للحاكم جاء :

« الا أن تكون تجارة عن تراض منكم »(٢)

---

(١) البقرة : ٢٦٧ (٢) النساء : ٢٩

فاذا كان تجـارة عن تراض يكون الحصـول عليه مشروعا . لأن التجارة ليس قوامها المـال وحده . وانما المـال بالاضـافة الى نشـاط الانسان وسعيه وتوجيهه .

والنص هنا فى التجارة عن التراضى بين الطرفين يبعد الاستغلال لأن الطرفين عندئذ فى مستوى واحد . ليس بينهما قوى وضعيف . ومن هنـا كانت التجارة وسيلة مشروعة فى تحصيل المـال وانمائه . الا اذا دخلها الاحتكار فتكون عندئذ غير مشروعة لفقدان التعادل بين الطرفين . والرضاء عندئذ صورة ظاهرة لاكراه مستتر وهو اكراه الحاجة لأحـد الطـرفين ، والرغبة فى الاستغلال فى الطرف الآخر .

* * *

● **الوسيلة الثـانية : وهى الافادة من مال اليتيم من جانب من أؤتمن على القوامة والوصاية عليه :** يبدو فيها استغلال ضعف الانسان عن طريق المـال بدوا واضحا .

فاليتيم ضعيف بحكم صغر سنه وعدم رشده — وضعيف مرة أخرى لحاجته فى حياته الى ماله ، سواء فى المحافظة عليه أو انمائه .

والقيم أو الوصى على مال اليتيم — فى مواجهة اليتيم نفسه — قوى من جانبين : قوى بأن مال اليتيم تحت يده . وقوى أيضا باسـتغلاله فى مباشرة هذا المـال فى صورة المحافظة عليه وانمائه .

فالقيم أو الوصى على مال اليتيم اذا استغل ضعف اليتيم من جانب ، والقوة التى بيده هو من جانب آخر فى الافادة من اليتيم تكون هذه الافادة استغلالا من أبشع صور الاستغلال البشرى عن طريق المـال . ولذلك عبر القرآن عن استغلال مال اليتيم بقوله :

« انه كان حوبا كبيرا »(١)

وقال أيضا :

« ان الذين يأكلون أموال اليتـامى ظلمـا انما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا »(٢)

ويسمى هذا الاكل اعتداء وظلما ، ويجعله أشبه بنار تستقر فى جوف من يحصل عليه ، مع توعده بالسعير المقيم فى الآخرة .

---

(١) النساء : ٢ (٢) النساء : ١٠

ولأن الوصى على مال اليتيم قد يكون له مجهود بشرى فى المحافظة عليه أو فى انمائه أباح القرآن له أن يأخذ قدرا من هذا المـــال لقاء هذا المجهود. ان كانت له حاجة الى مال :

((... ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف))(١)

ولكن فى وقت أن أباح له الأخذ عبر عن هذا الأخذ بالاكل حمـــلا له على الانصراف عنه . فالأكل هنا ينطوى على معنى يرهب ويخيف .

* * *

● **أما تحصيل المـال أو انماؤه عن طريق تطفيف الكيل فيما يكال أو البخس فيه ، والوزن فيما يوزن :** فحرمته أن هذا الصنيع ينطوى على غش أو سرقة من جانب ، وعلى استغلال ضعف من جانب آخر .

والغش أو السرقة واضح أمرهما ، لأنه الاستيلاء فى خفية على مال لم يؤذن فيه ولم يكن له مقابل .

وأما استغلال الضعف فان من له مصلحة الكيل أو الوزن بائعا أو مشتريا ذو حاجة الى من يبيع له أو يشـــترى منه ، له حاجة اما الى ثمن ما يكال أو يوزن ، أو الى ما يكال أو يوزن نفسه .

وهذه الحاجة مناط ضعفه هو ، وفى الوقت نفسه سبب قوة الآخر المتعامل معه . فأحد المتعاملين ضعيف ، والآخر قوى اذ لأحدهما حتما حاجة الى البيع والشراء . واذا كان لكل واحد منهما حاجة فهما يتفاوتان فيها . وأيهما يكون أكثر حاجة هو الضعيف ، وأيهما يكون أقل حاجة هو القوى .

واذن تنطوى هذه الوسيلة كذلك فى تحصيل المـــال أو فى انمـــائه على استغلال الضعف الانسانى من جانب ، وانعدام المجهود البشرى من جانب آخر ، فمباشرة السرقة أو الغش ليس مجهودا للانسان يحسب له . فانه ان عد مجهودا ما فهو مجهود الشيطان أو الهوى والانحراف .

* * *

● **والربا ــ وهو الوسيلة الرابعة : يمثل صورة جلية للاســـتغلال البشرى ، والتعطل الانسانى فى الوقت نفسه .**

---

(١) النساء : ٦

وصورته أن يطلب من له حاجة ملحة الى مال نقدى . أو الى مال ممثل فى مكيل أو موزون من صاحب المـــال قرضا لأجل معين مع اضافة معينة فى غير مقابل تدفع مع القرض نفسه . وقد عرفه بعض الفقهاء بأنه : فضل مال بلا عوض فى معاوضة مال بمال(١) .

فصاحب الحاجة الى المـــال ضعيف ، وبسبب ضعفه قبل دفع الزيادة على أصل القرض عند حلول الأجل .

وصاحب المـــال لأنه فرض هذه الزيادة مســـتغل لضعف صـــاحب الحاجة . فهنا استغلال لضعف ذى الحاجة .

وأيضا لأن صاحب المـــال جاءت اليه الزيادة من قرض للمحتاج بسبب المـــال وحده ، وليس بسبب مجهود بشرى معه ـــ كان معطـــلا بشريته وسعيه الانسانى ، ومعتمدا على المـــال وحده .

---

(١) أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم فى رواية مسلم عن عبادة بن الصامت وهو على سبيل الحصر : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يدا بيد ... فاذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم اذا كان يدا بيد » .

يلاحظ أن الربا فى تحريمه : مشروط بما هو ضرورى فى معيشة الانسان ويتوقف عليه سيرها . والحاجة الى أى نوع مما ورد هنـــا فى الحـــديث ـــ على سبيل الحصر ـــ تؤدى الى ضعف الانسان حتما ومذلته .

كما يستفاد مما ينسب الى الشيخ محمد عبده فى دفع « الزيادة » عن المـــال المقترض أنه اذا كانت تلك الزيادة فى مقابل خدمات تجارية أو انسانية لا تعد ربا ، لأنها عندئذ عوض . وينقل عنه قوله :

« ولا يدخل الربا المحـــرم الذى لا شك فيه من يعطى آخر مالا يستغله ويجعل له من كسبه حظا معينا فى الربح قل أم كثر . لا يدخل ذلك فى الربا « الجلى » المحرم المخرب للبيوت . لأن هذه معاملة نافعة للعامل ولصاحب المـــال . وذلك (أى الربا الجلى) ضار بواحد بلا ذنب غير الاضطرار ، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع . فلا يمكن أن يكون حكمهمـــا (أى النوع الجلى المحرم) والنوع الآخر الذى لا ضرر فيه هنا فى عدل واحد » (المنار : ج ٢ ص ٣٣٣)

فهذا التصرف نقل القيمة التى يجب أن تكون للانسان الى المال وعاش هو كلا عليه .

وأصبح المال بذلك — وليست طاقات الانسان — مصدر حياة الانسان ، مع أن المال كما ذكرنا هو مجموع المجهود البشرى وحصيلة انتاجه ، بحيث لو نفد المال من يده فترة ما استمرت حياته الانسانية واستمر مجهوده البشرى ، وجاء المال مرة أخرى تبعا لذلك .. وليس العكس .

وقضية الربا أنه بجانب استغلال ضعف ذى الحاجة **يحيل الانسان الى مستهلك فحسب** ، بدلا من أن يكون منتجا أصلا ومستهلكا فى الوقت ذاته . وتبعا لذلك يشيع التبطل والتعطل ويقل الانتاج البشرى .

ولو استشرى أمره وصل الى الغاء الانتاج البشرى كله . ويومئذ لا يعيش مجتمع الربا اليوم الا ليفنى غدا ، وهو اذا عاش اليوم عاش فى جزع واضطراب هلعا من مستقبله غدا ..

« الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ... »(١)

ان الربا داء للمجتمع وللانسانية كلها ، انه سرطانها الذى لا يبقى ولا يذر ! انه وباء مهلك ... واذا كان معطلا للانتاج البشرى ، ومحيلا الانسان الى مستهلك فقط ، فأى ضمان لحياة البشر ومعايشهم !!

من يفلح الأرض ويخرج منها أقوات الناس ؟

من يباشر الحرف التى يحتاجونها فى هذه المعايش ؟

من يدبر أمورهم ويقدم لهم ولأبنائهم خدمات الحياة ، ان شاع الربا وأصبح القاعدة فى التعامل بين الأفراد كما أصبح مصدر رزقهم الوحيد ؟؟

ان الله قد ربط الناس بوجوده ... فخلقهم ، وكفل لهم الأرزاق ... على نحو ما جاء فى قوله :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين . وان من شىء الا

---

(١) البقرة : ٢٧٥

عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون »(١)

والله الذى صنع ذلك ... هو نفسه الذى مكن الانسان من الكسب ، ووجهه الى السعى فى الحياة من أجل معيشته ... وبسعيه جعل لنفسه مالا ، والمال اذن هو نتيجة المجهود البشرى .

يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض »(٢)

فسمى حصيلة المال الذى هو ثمرة النشاط « **كسبا** » ... وأضاف الكسب الى البشر فى قوله : « **ما كسبتم** » . اشارة الى أن الأموال تابعة لمجهودهم الخاص ، وهى فى أيديهم ملك لهم .

وربما يفهم بعض الناس من الآية الأولى هنا أن المراد هو أن الله ينزل « مائدته » على الأرض ... وما على الانسان الا أن يتلقاها ، دون حاجة منه الى سعى بشرى خاص !!

ولو كان ذلك هو المعنى فى هذه الآية لاستحال أن يكون الربا — بعد ذلك حراما لأن هذا المعنى الذى يراد للآية أن تؤديه سيؤدى الى تعطيل سعى الانسان ومجهوده البشرى فيكون هو ونتيجة الربا سواء .. ولا يغير من هذه النتيجة أن الله هو المتكفل بالمعيشة بدون حاجة الى مجهود الانسان كما يراد للآية أن تؤديه . أو أن المال هو الذى يتسوم بذلك كما هى طبيعة الربا ..

ولم يبق الا أن يكون معنى هذه الآية وأمثالها أنها تلفت نظر الانسان فقط الى أن يتذكر الله دائما ، وخاصة فيما يتصل بحياته المعيشية أو بنتائج نشاطه ومجهوده فى الحياة .

ومعنى أن يتذكر الانسان « الله » ليس أن يقول : الله — الله — الله . ينطق بهذا الاسم الكريم دون أن يريد مدلوله !! وانما معنى تذكره اياه أن

---

(١) الحجر : ١٩ — ٢٣ (٢) البقرة : ٢٦٧

يجعل أمامه فى كل تصرف تلك القيم التى تحمل صفات الله ، وهى تلك القيم التى تتمثل فيما طلبه سبحانه من الناس فى رسالته وكتبه ، أن يعوه ويطبقوه وأن يؤمنوا به ويعملوا بمقتضاه ..

ومؤدى هذه الآية اذن : أنه اذا أراد الانسان مثلا تحصيل مال أو انماء مال حاضر لديه هو أن يبتعد عن استغلال الضعف البشرى فى أية صورة وباية وسيلة ، وليس ابتعاده فقط عما حدده القرآن هنا ، وانما يجب أن يتناول أيضا كل ما يشبهه . وهو كل وسيلة تسلم الى الاضرار بالغير نتيجة لعدم استطاعة هذا الغير المقاومة أو لعدم قدرته على المباشرة أو المواجهة . كما يجب أن يكون ابتعاده عن ذلك احدى نتائج تذكر الانسان الله فى العمل والتصرف .

ومؤدى هذه الآية أيضا — من وجه آخر — **أن ما على هذه الأرض وما فيها هو من الله وله ...** كما يصرح به قوله تعالى فى موضع آخر :

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير »(١)

ولذا لا ينبغى أن يكون هناك تخاصم وشحناء وبغضاء بين الناس بسبب سعيهم فيها وتحصيلهم زينتها ومتعها .

اذن فآية « الحجر » لا تريد أن تصرف الناس عن السعى ، وانما تريد فحسب أن لا يصحب سعيهم ومجهودهم فى تحصيل المال ومتع الحياة مايسىء الى علاقات بعضهم مع بعض .

والا — اذا لم يكن هذا هو المقصود — لم تكن هناك فائدة من تحصيل المال مع تقويض العلاقات الانسانية وفناء المجتمع !!

ذلك أنه اذا كان ما فى هذه الارض وما عليها من الله وله ، فهو جل جلاله يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير »(٢)

---

(١) البقرة : ١٠٧ (٢) آل عمران : ٢٦

واذا كان الوضع كذلك . فالحصول على ما فى هذه الأرض مرهون — مع سعى الانسان ومجهوده — بارادة الله وقدرته .

وهذا المراد الواضح جمعته آية « البقرة » التى أتينا بها بعدها وهى :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض »(١)

فزاوجت بين : **سعى الانسان فيما سمته هنا « كسبا »** . وبين **ارادة الله فيما عبرت عنه بقوله : « أخرجنا لكم »** .

والواقع أن الأمر يعود الى مجهود الانسان وسعيه وحده . أما الايمان باقتران الله بنتائج هذا المجهود والسعى . فلكى يخلص هذا المجهود من الانحراف . ويبعده عن وسائل الايذاء والضرر . ويستصحب معه خصائص الانسانية الكريمة فى الفعل والسلوك .

وهذا هو **فائدة الربط بين السماء والأرض ، واخضاع الانسان لرسالة الله !**

وليس من المعقول فى شىء أن يكون ايمان الانسان بالله معطلا له وحائلا دون نشاطه البشرى على هذه الأرض : والا فيم خلق الله السموات والأرض ؟ ولم خلق الانسان ؟

ان الله هو القائل فى خلق السموات والأرض :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق »(٢)

ومن ترى هم جنود الحق على الباطل ؟؟

انهم المؤمنون من الناس ؟

والله تعالى هو القائل فى خلق الانسان :

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »(٣)

---

(١) البقرة : ٢٦٧ (٢) الأنبياء : ١٦ — ١٨

(٣) الأعراف : ٢٧

وهكذا نادى القرآن الانسان على هذه الأرض ليأخذ حذره من عدوه فيها وهو الشيطان ! فالشيطان صاحب الاغواء ومناصر الباطل . والانسان مطالب بطلب الهداية ونشرها من أجل نصرة الحق وازهاق الباطل .

فغاية خلق الانسان ... هي **نصرة الحق اذن على هذه الأرض !**

ولن ينصر الانسان الحق . اذا قدر عليه تعطيل نشاطه وكبت سعيه في الحياة !!

انه عندئذ يكون **كائنا سلبيا ...** ولا ينتظر من كائن سلبي أن يفعل وأن يستجيب !!

انه تناقض .. اذن كيف يطلب الله من الناس وهم مقهورون على التعطل والتبطل ـ نصرة الحق ؟!!

كما جاء في قوله سبحانه :

« ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »(١)

ترى كيف يؤدى الانسان « الزكاة » .. وهو لا يحصل مالا . فالمال حصيلة المجهود البشرى ؟

وكيف ينهض بـ « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .. وهو معطل في تصريف طاقاته البشرية ؟.

أيكون أداؤه بـ « التواصى » و « الأمانى » دون العمل ؟؟

ومن أجل هذا كله . ومن أجل خطورة « الربا » في المجتمع وعلى سلامة توجيه الانسان وجهده في الحياة . وأدائه لرسالته فيها كان قول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين. فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم

---

(١) الحج : ٤٠ ـ ٤١ .

لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لكم ، ان كنتم تعلمون »(١)

فكان هذا القول فيصلا بين ماض وحاضر :

ماض .. تصفى رواسبه من بقـــايا هـــذا الوباء فى حـــزم واصرار : **« فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » !**

وحاضر ... يبدأ بداية انسانية كريمة . فصاحب المـــال يأخـــذ ماله فقط دون اضافة أية زيادة عليه : « **وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » !**

وصاحب الحاجة المستضعف يدفع ما اقترضه فحسب ان كان ذا قدرة على الدفع ، والا أرجىء الى ميسرة فيه بعـــد ذلك : « **وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » !!**

على أن أصحاب رؤوس الأموال لو علموا أن الخير لأنفسهم لتنـــازلوا فى اقتناع نفسى عما قدموه من قروض دون انتظار لاستردادها ممن أخـــذوها منهم وهم فى حالة عسر : « **وان تصدقوا خير لكم ، ان كنتم تعلمون » ...**

انهم بهذا التنازل يعملون على أن تستل الأحقاد من نفوس الضـــعفاء ويعود لها صفاؤها .. وبالتـــالى ترجع العـــلاقات فى المجتمع الى وضـــع طبيعى ، تقوم عليها أمة متماسكة تؤدى رسالتها خير أداء !

وهذا الاجراء ـــ كما تلزم الآية الأخذ به ـــ يتسم « بروح الثورة » !!

ان الثورة تقوم على دعامتين رئيسيتين :

أولاهما : تصفية رواسب الماضى الضعيف المعوق لقيام المجتمع الجديد

وثانيتهما : أخذ الحياة المستقبلة للأفراد والمجتمع على هدى من المبادىء الجديدة بحيث تتركز يوما بعد يوم ، وبحيث يزداد انعكاس أثرها فى وضوح على علاقات الأفـــراد أو فى تحقيق أهـــداف مجتمعهم المنشـــودة وهى تلك الأهداف التى قام المجتمع الجديد لتحقيقها .

وشأن الثورة أن لا تتراجع ، وأن لا تترك الحبل على الغـــارب ، وأن لا تسير طواعية أو كرها فى تجاهل ما يقع ... والا ما عادت ثورة بل تغدو أمرا مألوفا ، والا ما قام مجتمع جديد ، بل يصبح الوضـــع عندئذ استمرارا للقديم !!

---

(١) البقرة : ٢٧٨ ـــ ٢٨٠ .

ومع هـذه الروح الثورية الحازمة ، فى قطـع دابر الربا فى المجتمـع الاسلامى ... ينهج القرآن منهجه أيضا فى أن يقابل هذا الاجراء من الأفراد بروح زكية وبدفع ذاتى قوى ، فيقول :

« وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال النـاس فلا يربوا عنـد الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »(١)

ان القرآن يعكس « المعادلة » المألوفة التى كانت جارية لدى القوم..

كانوا يحسـبون أن الربا ـ وهو زيادة ـ يضيف الى المـال مالا جديدا ... وأن الانفاق ابتغاء وجه الله ولصـالح المجتمع ـ وهو اخراج وانقاص من المـال ـ ينقص المـال ولا يبقيه عند حده !!

ولكن أصبح الأمر على الضد فى حساب الاعتقاد والايمان !!

وطالمـا اعتقدوا وآمنوا ، فهم سعداء بمـا يعملون طبقا لاعتقـادهم وايمانهم !!

* * *

والربا فى تاريخ البشرية لم يشع فى جماعة على نحو ما شاع فى **جمـاعة « اليهود »** ، ولم يروجه فريق من النـاس مثل ما روجه اليهـود منذ فجـر التاريخ البشرى حتى اليوم .. ورغم ما جاءهم من الرسل محذرين ومنـذرين فانهم لم ينتهوا أبدا ، وأغلب الظن أنهم لن ينتهوا !

يقص القرآن الكريم عنهم :

● **« وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون »(١) .**

● **« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال النـاس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما »(٢)**

● **« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن**

---

(١) الروم : ٣٩ .
(٢) المائدة : ٦٢
(٣) النساء : ١٦٠ ، ١٦١

مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »(١)

فمن مثل هذه الآيات ، وكذلك من واقع التاريخ الى اليوم ... نجد اليهود يتميزون بالظواهر النفسية الآتية :

أولا : باعتدائهم على الحق وأصحاب الرسالات الانسانية ، بالقتل ، والعناد فى المعارضة .

ثانيا : بصدهم عن سبيل الله ، وهى سبيل الخير العام فى الأمم والشعوب ، وباستئثارهم بالمصلحة لهم وحدهم .

ثالثا : بالمادية الجارفة التى تتمثل فى أكل أموال الناس بالباطل ، وباستخدام الربا كطريق رئيسى لاستثمار المال واستغلاله .

رابعا : وبارتكاب وسائل الظلم ، ولو ضد أنفسهم .

« واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان »(٢)

خامسا : بعدم وفائهم بالعهود والمواثيق ، ربما كان لتمكن الاتجاه المادى فيهم — عن طريق الوراثة — الأثر الأول فى مصاحبته الظواهر الأخرى لتصرفاتهم ومواقفهم .

وقد تجاوز هذا الأثر لماديتهم الطاغية تصرفاتهم العملية الى ايمانهم القلبى وعقيدتهم النفسية :

فليست هناك أمة أو مجموعة من الناس أرسل رسول اليها فى التاريخ وطالبته برؤية الله عيانا ومشاهدة مثل ما فعل اليهود :

« واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة »(٣)

---

(١) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ (٢) البقرة : ٨٤ ، ٨٥
(٣) البقرة : ٥٥

وليست هناك أمة أو مجموعة من النـــاس طلبت **تغيير الطعام** ولو الى نوع أدنى فى المستوى واهتمت بمذاقه مثل ما فعل بنو اسرائيل مع موسى :

« واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنـــا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصـــلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالـــذى هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمســـكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »(١)

وليست هنـــاك أمة أو مجموعة من النـــاس امتد بها التطاول بالمـــال والتفاخر به الى أن **تصف نفسها بالغنى بينما تصف الله بالفقر** سوى جماعة اليهود :

« لقد سمع الله قول الذين قالـــوا ان الله فقير ونحن أغنيـــاء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق .. »(٢)

مادية جامحة ... فى الاعتقاد !!

ومادية أخرى جامحة ... فى التصرف والسلوك !!

وهذه المـــادية الجامحة ... فى طرفيها العملى والعقيدى ، تساوى : « لا انسانية » فى المعاملة !!

* * *

و « **الربا** » ... والاصرار على التعامل على أســـاسه ظاهرة طبيعية لدى من فقد الانسانية وتمكنت منه المـــادية الطاغية .

واذا قيل ان اليهـــود يشجعون الرأســـمالية ونظام الحرية الفردية فى استغلال رأس المال فذلك لأنهم يرون هذا النظام فرصة للسيطرة واستغلال الأكثرية من الناس فى العالم فى حاجتها الى المال .

والربا أوضح صور الاستغلال البشرى عن طريق المال ، وأيسرها فى انماء المال وتكثيره . فهم قراصنة المـــال فى المؤسسات المـــالية والاقتصادية

---

(١) البقرة : ٦١ (٢) آل عمران : ١٨١

العالمية . ولكن اذا قيل : انهم يشجعون الفكر الشيوعى ويرسمون للشيوعية طريق الفكر الانسانى فذلك لأنهم يريدون تقويض المجتمع المسيحى ، ورفع المسيحية كدين يربط بين المسيحيين ويقنن لهم السلوك الخلقى .

اذ السيطرة العالمية — وهى هدف اليهود — لا تنمو الا فى ظل احتكار المال سواء فى تداوله أو تشغيله .

ولا تنمو أيضا الا فى ظل انهيار المسيحية ، كدين يجمع بين أصحاب القوة فى الحضارة الصناعية الحديثة . اذ أن ما عدا المسيحيين من المسلمين والبوذيين وغيرهم فبقدر ما لهم من كثرة عددية ، يغلب عليهم الضعف فى جوانب القوة الموجهة فى عالمنا المعاصر ..

وهناك شك فى أن هؤلاء أو أولئكم « من المسلمين والبوذيين » أو غيرهم اذا كسبوا جانبا من جوانب القوة المعاصرة يكسبونها عن طريق الترابط على أساس الدين كقوة ايمانية . ان الاسلام كالبوذية اليوم فى أزمة عنيفة لا يستطيع معها أن يرى مصيره غدا أو يلمح بعض ظواهرها ، وهذه المظاهر :

أولا : أزمة « الالحاد الماركسى » ، ومعها أزمة «الصليبية الاستعمارية» وبالأخص بالنسبة للاسلام .

وثانيا : أزمة الانقلاب السريع للمعايير الأخلاقية فى البلاد الصناعية .

وثالثا : أزمة جمود رجال الدين بالنسبة للاسلام أو البوذية ، وضعف عرضهم للمبادىء الدينية فى مواجهة العرض الحديث للآراء والمبادىء المناوئة للقيم السماوية .

وذلك كله بالاضافة الى جهل الناشئة فى المجتمعات الافريقية والآسيوية ، أو سوء فهمها لمطلوب الدين ورسالته فى أى مجتمع منها ، ثم فى المجتمع الانسانى العالمى ..

الأصل الأول : اعتبار الله مالكا للمال :

ونخلص من هذا كله الى أن للاسلام نظرة أساسية فى المال :

أولا : ان المال ضرورى ، وان الانسان بحكم فطرته موجه الى اقتنائه وانمائه .

وثانيا : لأهميته فى حياة الانسان كان منطويا على فتنة واغراء ، وتجنبا لفتنته تجب الحيطة فى وسائل تحصيله أو انمائه .

وقد يرى بجانب هذه النظرة الأساسية للاسلام نظرة أخرى ، وربما تعتبر النظرة الأولى له ، التى يمكن أن تتفرع عنها النظرة السابقة .

وهى أن هذا **المال ملك لله** ، والانسان مستخلف عليه ومفوض فيه نائبا عن الله .

ومؤدى هذه النظرة أن **الملكية الحقيقية للمال هى لله ، وأنه ان وجد بيد الانسان فهو وديعة أو أمانة** ، يجب أن يسلك الانسان فيه المسلك الذى يصونه عن التبديد أو العبث به .

ويترتب على هذا الأصل ... أن من بيده المال يجب :

● **أن يلتزم فيه حدود الله** ... سواء فى طرق « التحصيل » ، أو فى وسائل « التنمية » .

● **وأن ينفق فى سبيل الله** ، وفيما دعا الله الى الانفاق فيه لصالح المجتمع أو لصالح من عداه من الأفراد فيه ، زيادة عما يؤديه من الزكاة .

● واذا أضاف الى ذلك أنه يفعله عن **ايمان بالله** ، لم تكن تأديته ايام باكراه فيه ومضطرا اليه . وانما بالأحرى يكون ذا مشيئة واختيار فى أدائه .

وهذا يوجب **أن تكون التربية الأخلاقية ــ وليس الزام السلطة ــ هى قانون الحياة الانسانية فى المجتمع الاسلامى .**

وهنا يكون تحذير القرآن من فتنة المال ــ وكذلك ترغيبه فى الانفاق الى حد أنه جعل الانفاق فى سبيل الله صنوا للايمان به أو على الأقل ركنا أساسيا فيه ــ ليخلق الجو النفسى الصالح لدى الانسان كى يمارس السلوك المستقيم مع المال بمحض اختياره ومشيئته ، دون الزام وقهر فيه .

وعلى هذا النحو يمكن أن تبدو صلاحية جعل المال ملكا لله وجعل الانسان مستخلفا نظرة أساسية من جانب الاسلام الى المال وتملكه .

ثم ما رآه الاسلام من فتنة المال واغرائه ، وبالتالى ما يطلب انفاقه فى أوجه الانفاق المحددة يجوز أن يكون متفرعا من هذا الأصل .

ويمكن أن تساعد نصوص القرآن على ذلك :

بعض الآيات تشير الى ملكية الله للمال ... والبعض الآخر يشير الى استخلاف الانسان عليه وتفويضه فى التصرف فيه .

فمن الآيات التى تشير الى أن ملكية المـــال لله قوله :

● ((هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ...))(١)

● ((قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشـــاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير))(٢)

● ((ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث الســموات والأرض ، والله بما تعملون خبير))(٣)

● ((له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى))(٤)

● ((يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد))(٥)

الأصل الثانى : اعتبار الانسان مستخلفا عليه ومفوضا فيه :

ومن الآيات التى تعطى استخلاف الله للانسان على المـــال وتفويضه فى التصرف فيه قوله :

● ((وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضـــكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم))(٦)

● ((ولقد مكنـــاكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معـــايش ، قليـــلا مـــا تشكرون))(٧)

● ((آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعـــلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير))(٨)

وكما سبق : مقتضى ملكية الله للمال أصلا ... واستخلاف الانســـان

---

(١) البقرة : ٢٩
(٢) آل عمران : ٢٦
(٣) آل عمران : ١٨٠
(٤) طه : ٦
(٥) فاطر : ١٥
(٦) الانعام : ١٦٥ .
(٧) الأعراف : ١٠
(٨) الحديد : ٧

عليه : هو أن **تصرفات الانسان فى المـال مرتبطة بالحدود والتوجيهات التى تضمنتها وصاية الله فى كتابه بشأن المـال ... ان فى الحصول عليه ، أو فى استثماره ، أو فى أوجه انفاقه ، أو فى تقييمه وتقديره .**

وليس الايمان بأن المـال ملك لله بمانع الانسان من التصرف فيه ... ببيع أو شراء ، أو بتأجير أو استثمار ، أو برهن أو وصية ، أو بهبة أو اقراض . فالقرآن فى آياته الكثيرة بشأن المـال يسند التصرف فيه — أى تصرف — الى الانسان سواء فى المباح منه أو المحظور .

وفى ذلك دليل على أن الانسان صاحب الاختيار فى المـال وصاحب التصرف فيه كأنه مالك له على سبيل الحقيقة .

ولا أدل على ذلك مما جاء فى قوله تعالى :

« ... من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم »(١)

فمع كون المـال فى أصله ملكا لله اذا أنفقه الانسان فى أوجه الخير كأنه أقرضه لله . وكان المـال عندئذ يتغير اعتباره ، وكان المالك الحقيقى له هو الانسان وليس الله .

فالمقترض عادة يقترض ما ليس ملكا له ، والمقرض عادة يقرض مما فى ملكه أو مما له الولاية عليه ، لغير مالك له .

وتعبير القرآن على الانفاق فى سبيل الله بالقرض اليه ليشعر الانسان بأهمية الانفاق فى سبيل الصالح العام ويبرز أثره فى تقييم تصرفاته .

ولكن ذلك **لا يخرج القضية عن وضعها الأصيل ، وهو ملكية الله للمال ، واستخلاف الانسان عليه .**

* * *

وعندما يوجه القرآن نداءه الى الانسان نحو الانفاق فى أوجه الخير عامة . أو لصالح القرابات الأسرية ، أو لرعاية ذوى الحاجة من الأفراد القريبين منه فى الجوار — يشتمل نداؤه على ثلاثة عناصر :

---

(١) الحديد : ١١

● تذكير الانسان بأن ما فى يده هو من الله .

● توضيح الأثر الايجابى لهذا النوع من الانفاق فى حياته الحاضرة ، وفى مستقبله .

● بيان أهمية المصرف بوجه خاص بالتنصيص عليه وتحديده .

فنقرأ مثلا قوله تعالى :

« فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »(١)

وعلى هذا الغرار قوله تعالى :

« ... وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون »(٢)

وآيات أخرى كثيرة تشير الى ذلك وتتضمنه عن طريق غير مباشر :

نقرأ قوله تعالى :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير »(٣)

فأكد فى أول الآية وآخرها أن المال لله ، اليوم وغدا . كما بين ما سيعقب البخل من مساوىء تعود على البخيل نفسه ، وهو ذلك الذى لم يستجب الى النداء السابق .

* * *

كما أن مما يترتب على ملكية الله للمال واستخلاف الانسان — على نحو ما أشير اليه اجمالا فيما مضى — عدة أمور :

---

(١) الروم : ٣٨ ، ٣٩ (٢) البقرة : ٢٧٢
(٣) آل عمران : ١٨٠

● أن الانسان ليس حرا حرية مطلقة فى التصرف فى المـــال وتثميره ، بحيث يجوز له عن طريق هذه الحرية أن يضر نفسه أو يضر الصالح العام .

● وأن على الانسان أن يلتزم فى شـــئون المـــال — أى شأن فيه — جميع الحدود التى رسمها القرآن فى تحصيله وانمـــائه واغلاله ، وصرفه ، ومعيار الانفاق الخاص منه . والانسان اذن موجه فى شئون المـــال ، وملكية المـــال ملكية موجهة .

● وان حدود التوجيه كما نصت الآيات صراحة عليها :

— عدم استغلال الضعف البشرى فى أى صورة ما بسبب المال ، وعدم اتخاذ المال وسيلة لاهدار الكرامة البشرية .

— عدم اكتناز المـــال والحيلولة دون تداوله فى الصالح العام .

— عدم انفاق المـــال فى فاحشة أو منكر ، مما من شأنه أن يضعف أو يلغى اعتبار القيم التى استهدفها المجتمع فى قيامه ، ويستهدفها فى بقائه .

— عدم السفه فى التصرف فيه .

— احترام حق المصلحة العامة ، وحق أصحاب الحاجة فيه .

— تعلق هذا الحق لأصحاب الحاجة بكل زائد عن حاجة من بيده المال فى معيشته .

● وأن حدود هذا التوجيه جاء بها كتاب الله ، والانسان بايمـــانه به ألزم نفسه بها .. فالالزام بالسير وفق هذه الحدود فى شئون المـــال الـــزام ذاتى ، وليس من سلطة أخرى وراء ذاته ، فهو جزء من ايمانه ، وبعض من كل حياته .

● لولى الأمر — قبل أى فرد آخر فى الجمـــاعة — أن ينزع المال ممن لا يلتزم فى تصرفاته هذا التوجيه ، احتفاظا بحق المصلحة العـــامة فيه ورعاية لحق الله فى ملكه اياه ، وهو حق تجب صيانته من العبث فيه .

وحق الله تتكفل به جماعة المســـلمين عامة وتسقط مطالبتهم به لو قام به عنهم ولى الأمر فيهم .

ولمزيد ايضاح هذه الحدود نعرضها مرة أخرى فى شىء من التفصيل ..

* * *

مدى حرية الانسان فى التصرف فى المـــال :

ليس من المنطق فى شىء أن يكون هنـــاك طرفان فى أمر ما ، ويســـتقل أحدهما دون رعاية حق الآخر بالتصرف فيه . اذ مثل هـــذا التصرف هو فى الواقع حل للشركة القائمة ، أو انكار لحق الطـــرف الذى لم يراع جانبه فى التصرف .

فاذا كان أســـاس الشركة أن أحـــد الطرفين هو المـــالك للشىء ملكا حقيقيا ، وأن الطرف الثانى مفوض من قبله فيه ، ومؤتمن على الحفاظ عليه من جانبه ، فاستقلال من لا يملك بالتصرف فى ملك الغير يكون عندئذ اعتـــداء صريحا على ما لهذا الغير عنده .

فاذا كان المـــالك بعد ذلك هو الخالق والمعبـــود ، وأن المؤتمن هـــو الانسان العابد له والمؤمن به ، كان استقلال الانســـان بالتصرف فيما وكل اليه من قبل الله واؤتمن عليه واستخلف فيـــه — انكارا للربوبية ، وتطاولا على من له وحده الملك فى السموات والأرض .

فعدم القيام عندئذ بما يجب على الانسان نحو المـــال وفيه لا يقل أثرا عن الكفر بالله جل وعلا .

« وسورة الليل » **تقرن الانفاق بالايمـــان معا ، والبخل بالكفـــر على السواء** فى قوله تعالى :

« والليل اذا يغشى . والنهار اذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . ان سعيكم لشتى .

فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى .

وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله اذا تردى .

ان علينا للهدى . وان لنا للآخرة والأولى .

فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها الا الأشقى . الذى كذب وتولى .

وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمـــة تجزى . الا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى »(١)

---

(١) سورة الليل .

« وسورة الماعون » جعلت من يسلك مسلكا ايجابيا فى ايذاء الضعيف وصاحب الحاجة ومنعه من أن يصل اليه حقه فى مال الأفـــراد **مســـاويا لمن يكذب بالآخرة** وينكرها :

« أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الـــذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون »(١)

وأنذرت هذه السورة الذين يؤدون صلاتهم مع كونهم يمنعون حق الغير فى أموالهم . وهم عندئذ ساهون على سبيل الحقيقة عن صلاتهم ، وبعيدون عن غايتها . لأن الصلاة فى هذا الوقت لم تكن عنوان ايمـــان . اذ لو كانت كذلك لما منع مؤدوها حق الغير فى المـــال من أن يصل اليه .

وليس البخل فى المـــال الا تفردا فى التصرف من جانب واحـــد فيه وهو جانب الانسان ، وفى الوقت نفسه تجاهلا لحق المـــالك الأصيل الأعظم وهو الله . وليس حق الله الا حق المصلحة العامة فى المجتمع ، وحق ذوى الحاجة فيه من الأفراد .

واذا لم يكن الانسان ذا حرية مطلقة فى التصرف فى المال بالذى بيده ، وعليه اذن رعاية حدود الله فيه ... فمن الأمانة رعاية هذه الحـــدود رعاية تامة .

ثم من الانسانية المهذبة أن تكون هذه الرعاية صادرة عن رضـــا نفس ورقابة ذاتية داخلية ، بحيث تصحبها متعة فى الأداء .

والمؤمن على سبيل الحقيقة هو الذى **يرى من نفسه ، وبانفعالاته النفسى ـــ تعلق منفعة الغير بماله الذى بيده رعاية لحق الله :**

« ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(٢)

« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير

---

(١) سورة الماعون . (٢) الذاريات : ١٥ ـــ ١٩

منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »(١)

فالمؤمن على الحقيقة هو الذى يرى أن الانفاق وراء الزكاة حق آخر عليه فى سبيل الله وفى دفع حاجات المحتاجين من المال الذى له ولاية عليه يلزم به نفسه ولا تبرأ ذمته منه الا بالاداء .

فليس ما فرضه الاسلام من زكاة الا جزءا ضروريا فى نطاق ما ينتظر من المؤمن أداؤه رعاية لجانب الله فى المال .

حق الله فى المال :

ورعاية حق الله فى شئون المال تكون من عدة وجوه :

● **الوجه الأول : فى المعيار** الذى يلزم الانسان به نفسه فى تقدير نفقاته الشخصية له ولمن يعوله ...

فقد جاء قوله تعالى فى تحديد هذا المعيار :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »(٢)

كما جاء فى هذا الشأن أيضا وصف عباد الرحمن وهم المتقون المؤمنون :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »(٣)

فاذا خرج الانفاق عن حد « القوام » وهو الوسط كان اما الى الشح والبخل . واما الى التبذير والاسراف .

والشح فى الانفاق الخاص — فوق أنه يذل الانسان ويعكس آية بشريته . بجعل المال سيدا على نفسه — قد يجر الى الامساك عن الانفاق العام . وفيما يجب أن يصرف فى سبيل الله لدفع حاجات أصحاب الحاجة من الأفراد .

وعندئذ تكون غاية المال فى الحياة فوق القيم العليا للبشرية والرسالة الانسانية فى المجتمع . وفى علاقات الناس بعضهم ببعض .

---

(١) المعارج : ١٩ — ٢٥ (٢) الاسراء : ٢٩
(٣) الفرقان : ٦٧

عندئذ يتحول الانسان عن الانفاق الى صورة للانسان ، وبالاضافة الى انه يعوق انسانية غيره فى النمو والصفاء .

ويقول القرآن الكريم فى وصف الشح وما يستتبعه من آثار تلاحقه :

« فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما »(١)

كما يقول أيضا :

« ويل لكل همزة لمزة . الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التى تطلع على الأفئدة . انها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة »(٢)

ويقول كذلك :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »(٣)

ويشير ما جاء هنا فى سورة الفجر الى حقيقة يرددها الدين دائما ... وهى أن الابتلاء بما فى الدنيا لها من زينة . والمال فى مقدمة انواع الزينة على نحو ما جاء فى قوله :

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »(٤)

والابتلاء كذلك بما فى الدنيا من سراء وضراء ، والحرمان من المال — فى مقدمة ذلك ... كما يقول فى آية أخرى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب »(٥)

---

(١) الفجر : ١٥ — ٢٠ (٢) سورة الهمزة .
(٣) التوبة : ٣٤ — ٣٥ (٤) الكهف : ٧
(٥) البقرة : ٢١٤

والدين اذ ينظر الى الحياة الدنيا كمرحلة اختبار وابتلاء فى حياة الانسان الأولى : ان باكتمال زينتها لديه أو بحرمانه منها كلا أو بعضا ، لم يقصد أن يقلقه فيها ، ولا أن يحمله على الهرب منها ، ولا على أن يسلك فيها المسلك السلبى الانعزالى ، والا لناقض نفسه فيما أوجبه على الانسان من كفاح ومناصرة للحق على الباطل ... وانما قصد التوجيه فحسب .

والانسان اذا لم يوجه ، ويؤمن بهذا التوجيه ويأخذ به نفسه فانه ، يطغى ... ان رأى نفسه استغنى !

« ... أن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى »(١)

« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »(٢)

والانسان أيضا اذا لم يوجه ويؤمن بالتوجيه ، ويطيعه فى حياته العملية ... **صار الى الخسران حتما !**

« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »(٣) .

وما خسران الانسان الا فى **ضعف علاقات الأفراد** ، والا فى الخصومة والشحناء ، والا فى الحقد والتآمر ، والا فى الوشاية والأكاذيب ، والا فى الضلال واغواء الشيطان .

* * *

وقضية **« الابتلاء بالدنيا وزينتها »** فى الدين ...

كقضية **« الايمان بالله »** فيه ...

كقضية **« حق الله فى المال »** فى تعاليمه ...

كقضية **« الرزق على الله »** فيما أوحى به ...

كل ذلك .. ليس من الأساطير التى يعوق الاعتقاد بها الانسان عن الانطلاق فى هذه الحياة البشرية الأرضية ، وعن الاستقرار فيها ، والسيادة

---

(١) العلق : ٦ ـ ٧ (٢) المعارج : ١٩ ـ ٢٥

(٣) سورة العصر .

عليها بعقله وعمله ومكتشفاته .. وانما هى على العكس قضايا ضرورية لهذا الانطلاق ، ولهذا الاستقرار ، ولهذه السيادة .

ان هذه القضايا والمعتقدات صمام الأمان للانطلاق الحر السليم ، والاستقرار الذى لا يشوبه قلق الخوف ، وللسيادة التى لا يصحبها طغيان الاستغناء .

ان الانسان بذاته لم ينجح حتى الآن فى اقامة صمام الأمان بعد أن استغنى عن السماء .

وتاريخ البشرية بعد أن اعتز الانسان بعقله وبعلمه ، وبعد أن اتخذ العلم الها ، لم يسجل فى حياته الا القلق ، والا الخوف من الجوع ، والا طغيان الانسان أن رأى نفسه استغنى بعلمه ، أو بماله ، أو بكليهما .

والقلق ، والخوف ، والطغيان .. أصبحت ثلاثتها (تعبد) من الانسان المعاصر ، رجاء أن يجنبها نفسه وأملا فى أن لا يلحق به أذاها !!

تماما كما كان يعبد الانسان فى القديم (الثعبان) ، و (الصحراء) ، و (رياح السموم) اتقاء شرها على نفسه ، أو على ما يزرع ويفلح فى أرضه !!

* * *

أما الجانب الآخر الخارج عن « **حد القوام** » وهو التبذير أو الاسراف ، فمؤداه الى الانفاق فيما لم تدع اليه حاجة أو ضرورة فى حياة المبذر أو المسرف ، ومؤداه بالتالى الى الامساك — فى مقابل ذلك بالضرورة — عن الانفاق فى دفع حاجة أو ضرورة فى حياة الآخرين ممن لهم حق فى ماله ، بمقتضى حق الله فيه .

● وقد يصل التبذير والاسراف بالمبذر والمسرف الى أن ينفق فى سبيل الشيطان ، أى ينفق فيما يعود بالضرر على شخصه ، وعلى أسرته ، وعلى من معه فى مجتمعه ... **كالانفاق فى فاحشة أو منكر .**

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »(١)

---

(١) المائدة : ٩٠ . ٩١

● وقد يصل المبـذر فى انفاقه **الى الخروج من الأهلية والصـلاحية الانسانية** . كأن ينفق فى **معاونة الأعداء** الذين يتربصـون بمجتمعه وبإخوانه المشاركين معه فى أهـداف المجتمع التى قام من أجلهـا ويسعى للبقـاء فى سبيلها . وعندئذ يصل فى تصرفه الى السفه . ويعد من السـفهاء من يجب وجوبا كفائيا على جميع المؤمنين انتزاع المـال من أيديهم حفظا لحق **الله من جانب ، وصونا** للمال فى بقائه فى خدمة المجتمع من جانب آخر .

ويقول الله تعالى فى شأن السفهاء :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيـاما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا »(١)

وقصد ـ ان بقيت الآية على عموم لفظها ـ الى نزع المـال من أيديهم ثم الى عدم رده ثانية اليهم طالمـا هم سفهاء .

وعلل القرآن هـذا الاجـراء بأن المـال هو **مال جميع أفراد المجتمع من المؤمنين** .. اذ أضافه اليهم فى قوله : **« أموالكم »** وليس للسفهاء وحدهم ، وان به أيضا قيام المجتمع وبقاءه . ولذلك لا يحتمل الابطاء فى الحفاظ عليـه والاستمرار فى الانتفاع به فى صالح المجتمع .

ولكن اذا كان الخطاب فى قوله : **« ولا تؤتوا »** موجها الى الأولياء على أموال اليتامى فيجرى النص على ظاهره فى قوله : **« ولا تؤتوا »** وهو عـدم التسليم دون حاجة الى سبق النزع . لأن أموال اليتامى لم تكن بأيديهم حتى تنتزع منهم .

وجاء فى كتاب البحر(٢) أن السـفه المقتضى للحجر عنـد من أثبته هو « صرف المال فى الفسق أو فيما لا مصلحة فيه ولا غرض دينى أو دنيوى » .

ومن غير شك **أن الصرف فيما يضر المجموع لا يقل شأنا عن الصرف فى الفسق الذى يصيب الفرد وحده أو يصيب قلة معه** كأسرته مثلا أو جيرانه .

واذا كان الصرف فيما يضر الفرد أو المجموع أساسا لعدم تمكين صاحب المـال من ماله ، فيستوى أن يكون صاحب المـال يتيما أصلا أو غير يتيم ، تجنبا للأضرار وحفظا للأموال لتؤدى وظيفتها العـامة الاجتمـاعية ، وهى الانتفاع بها عامة . وقوله تعالى :

---

(١) النساء : ٥ (٢) نقلا عن نيل الأوطار ج ٥ ص ٢٦٢ .

« ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين »(١)

يتضمن دفع التبذير والحيلولة دونه ، كما يدفع الشيطان ويحال دون اغوائه ، وهى مهمة أساسية للانسان المؤمن .

ولكن من جانب آخر : تجب **رعاية هؤلاء الذين لا تسلم اليهم الأموال لسفههم** ، بأن يعطوا من غلة هذا المال ما يكفل لهم حياتهم اليومية ، ونصيبا آخر لكسائهم واحتياجاتهم التى لا تتكرر كثيرا .

وبالاضافة الى تلك الرعاية يجب أن يبقى لهم اعتبارهم الانسانى فلا يسخر منهم أحد ولا يساؤون بقول أو عمل ، كما تأمر الآية : **« وقولوا لهم قولا معروفا »(٢)**

اذا الاجراء الذى يتبع معهم هو اجراء فى المال . وليس اجراء سد بشريتهم وانسانيتهم .

فالاسلام شديد الحرص على أن **التدابير الاستثنائية ــ كعدم تسليم الأموال لأيدى السفهاء هنا ــ يجب أن تكون بقدر ..** أى يجب أن تبقى هذه التدابير عند حد تحقيق الهدف الذى اتخذت من أجله .

والاسلام أيضا شديد الحرص فى الوقت نفسه على عدم اهدار انسانية الانسان اذا فقد صلاحيته واهليته فى جانب من جوانب نشاطه ، كفقد الصلاحية لمباشرة المال هنا .

وهو اذن يفصل بين **« القيم »** ، على معنى أنه لا يسلب جميع القيم الانسانية من الانسان بفقدانه واحدة منها ، باستثناء قيمة واحدة هى قيمة : « الايمان بالله » ، فهى القيمة التى اذا فقدها المرء فقد اعتباره الانسانى عامة ، لأن الايمان بالله أساس كل قيمة انسانية أخرى عداها ووراءها . ويشير الى ذلك قوله :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »(٣)

* * *

---

(١) الاسراء : ٢٧
(٢) النساء : ٥ ــ ٨
(٣) النساء : ٤٨

واذا كان عدم تسليم المـــال لأيدى عديمى الاهلية والصلاحية واجبـــا على جميع الأولياء ، يأثمون بعدم قيامهم به ، فانه **يتعين على صاحب الولاية العامة** — وهو رئيس الدولة — أى يجب عليه وجـــوبا عينيـــا أداء الأمـــر وتنفيذه ، وفاء بما جاء فى كتاب الله وضمانا لصون النظام العام ودفعا للفوضى والفساد ، لو قام به آخرون من أفراد المجتمع .

وأعداء المجتمع مثل هؤلاء عديمو الأهلية والصلاحية ، فى عدم امتـــلاك المال والاحتفاظ به بأيديهم .. وهم أعداء الأهداف التى قام فى سبيل تحقيقها ، والمتربصون به ، والمشككون فى قيمه . وهم فى الواقع أعداء الله ، وأعـــداء الانسانية والقيم العليا ، كالمستعمرين ، فى القديم والحديث !

هؤلاء الأعـــداء يجب انتزاع مال المؤمنين من أيديهم . وابعـــادهم عن مباشرته ، فى التملك أو فى الانماء . وذلك لأن هذه الآية رتبت هـــذا الحكم على السفه ، والأصل فى السفهاء هم أعداء الله وأعـــداء القيم الانســـانية الرفيعة . يقول القرآن :

« واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن الســـفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »(١) .

والمقصود هنا فريق من الكافرين يدعى الايمان بالله ، وهو ليس بمؤمنا على سبيل الحقيقة — وجاء فى قوله من قبل :

« ومن النـــاس من يقول آمنـــا بالله وباليـــوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . فى ذلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . واذا قيل لهم آمنوا ... »(٢)

فالقرآن هنا فى هذه الآية **أطلق على هؤلاء الكافرين بالذات** « سفهاء » ... فى الوقت الذى نفى فيه هذا الوصف عن المؤمنين !

ولم يطلق على هؤلاء الكافرين وصف « سفهاء » لتبذيرهم فى المـــال أو لمبالغتهم فى الاسراف .... وانما **ربط ســـفههم بكفرهم** ، فكان كفـــرهم علة لوصفهم به !

---

(١) البقرة : ١٣ (٢) البقرة : ٨ — ١٣

ويؤيد هذا قول القرآن الكريم فى موضع آخر :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(١)

فالسفهاء هنا أيضا الكافرون من أهل الكتاب . وهم فى الواقع من اليهود ، سواء هنا أو فيما سبق .

ويقول كذلك :

« قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »(٢)

كما يقول :

« ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب »(٣)

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين »(٤)

مما يدل دلالة واضحة على أن أصل المعنى فى الاسراف هو الكفر وعدم الهداية بالاسلام .

والمسلمون الذين فقدوا أهلية المال وصلاحية مباشرته أطلق عليهم القرآن « سفهاء » لمشاركتهم هؤلاء فى عدم ائتمانهم على مال المسلمين ووضعه تحت أيديهم !!

واذا كان السبب فى عدم ائتمان أعداء الله والانسانية على أموال المسلمين هو عداوتهم لقيم المجتمع وتربصهم به ، فيستحيل عليهم أن يخلصوا فى مباشرة المال وهو قوام المجتمع وعضده — لصالح المسلمين ... فان السبب فى عدم ائتمان عديمى الأهلية والصلاحية من المسلمين فى مباشرة المال ، على المال ووضعه بين أيديهم هو فساد طبعهم فى أمر حيوى للأمة ، فيستحيل عليهم عندئذ أن تكون مباشرتهم للمال فى صالح المجتمع وصالح اخوانهم فيه .

---

(١) البقرة : ١٤٢ .
(٢) طه : ١٢٥ — ١٢٧
(٣) غافر : ٢٨
(٤) الانعام : ١٤٠

ورفع أيدى الأعداء عن أموال المجتمع **بتأميم الدولة الاسلامية متلا للبنوك والشركات الأجنبية** ... الخ أمر لا يتفق فقط مع منطق الآية التى أشرنا اليها وهى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما »(١)

وانما هو **واجب على سبيل الكفاية على جميع أفراد المجتمع .**

وهكذا نرى أن معيار النفقة الشخصية من الأموال التى فى حيازة الأفراد وتعد ملكا لهم ، هو المعيار القويم فعلا ، وأن حد الانفاق لو نزل الى الشح والتقتير ، أو ارتفع الى الاسراف أو السفه كان ضارا بالقيمة الانسانية ، سواء لمن بيده المال أو لمن عداه من أفراد المجتمع .

الوجه الثانى فى جمع المال وانمائه :

وتمتد رعاية جانب الله فى المال من تحديد معيار النفقات الشخصية الى وسائل تحصيل المال وتنميته . لأن حق الله فى المال كل لا يتبعض ، فلا يجوز أن يكون معيار الانفاق الشخصى سليما فى حدود الاعتدال أو الوسط ثم تكون وسائل تحصيله أو تنميته ضارة بالاعتبار البشرى وقائمة على اهدار الكرامة الانسانية .

ولذا كان : **« تذكر الله » فى كل شأن مالى ضرورة يمليها منطق ملكية الله للمال أصلا** . واذا كان حق الله فى المال هو لمصلحة الجماعة عامة ، ولتغطية حاجات المحتاجين فيها فمن المحرم قطعا أن تكون وسائل السعى الى المال أو الى انمائه واثماره على حساب المصلحة العامة ، أو على حساب حاجات المحتاجين ، فضلا عن أن تكون قائمة على استغلال جانب الضعف فى الانسان ، أو على الاستخفاف بالجانب الانسانى فيه .

ومن هنا — كما تقدم — كان :

- **الربا** ... حراما .
- **وأكل مال اليتيم** ... حراما ...
- **وأكل أموال الناس بالباطل** عن طريق الرشوة للحاكم ... حراما
- **وعدم ايفاء الكيل والوزن** ... حراما

---

(١) النساء : ٥

● ويلحق بالربا : كل ربح أو ثمرة جاءت نتيجة لعدم بذل أى جهد بشرى من جانب ، واستغلال ضعف ذى الحاجة الملحة من جانب آخر .

ويلحق بأكل مال اليتيم كل ما جاء ربحا لاستغلال عاجز عن مباشرة المال فى حفظه أو انمائه ، وعاجز أيضا عن مقاومة من تحت يده ماله عند اعتدائه عليه .

ويلحق بأكل أموال الناس بالباطل عن طريق رشوة الحاكم ، أموال الدولة فى المزايدات والمناقصات — لأنها لا تخرج عن كونها أموالا للناس — اذا باشرها العملاء بطريق الرشوة المادية أو المعنوية ، السافرة أو المقنعة .

ويلحق بعدم ايفاء الكيل والوزن كل ما يتعلق بقوت الأفراد ومعاشهم الأساسى ، مما يسبب لهم ضررا أو حرمانا أو قلقا ، كحبس مواد التموين عن التداول أو عدم رعاية العدل فى توزيعها ...

وهذه صور من الوسائل المحرمة التى انعدمت فيها رعاية حق الله فى المال فى شأن تحصيله أو انمائه — تكشف عن قاعدة أساسية يرد اليها الأمر فى حله أو حرمته . وهى :

(كل ما يحفظ للضعفاء حقهم فى المال ، وحقهم فى تجنب الأضرار والايذاء ، وحقهم فى الاعتبار الانسانى فهو حلال روعى فيه حق الله . وكل ما خلا من ذلك وعلى الضد منه فهو حرام لم تتوافر فيه رعاية جانب الله) .

الوجه الثالث : أداء الانسان فيما استخلف عليه يقوم على الاختيار :

تستمر رعاية حق الله فى المال ممتدة من معيار الانفاق الشخصى ، الى تحديد وسائل تحصيل المال واثماره ، الى تحديد حق الله ومقدار ما يؤخذ لصالحه من أموال الأفراد .

والاسلام — كأساس من أسسه — ينفر من الاكراه الخارجى ، ومن الزام الانسان من غيره بشىء يؤديه . ويؤثر أن يكون عمل الانسان ترجمة لاختياره ومشيئته وأن يكون بوحى ضميره ومن واقع ذاته .

ولذلك لا يؤجر الانسان من الله عن عمل له فى نظر الاسلام الا **اذا كان قد قصد الى هذا العمل ، وجاء نتيجة الايمان به** .. ويشير الى هذا قوله تعالى :

« قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ، انكم كنتم قوما فاسقين .

وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون »(١)

جاءت هذه الآية فى شأن المنافقين .. وهم من ظاهرهم الطاعة والمسالمة، وفى أنفسهم يبيتون الفتن ، ويبغون المكروه والسوء للمؤمنين .

فقبل هذه الآية يقول القرآن فى حقهم :

« لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون »(٢)

« ان تصبك حسنة تسؤهم ، وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ... »(٣)

فعدم قبول الله الانفاق من هؤلاء المنافقين ، دليل على أن **للارادة الفردية والذاتية دخل فى تقييم العمل** ... ثم من جهة أخرى ما يأتى به المنافقون من عمل ولو كان ظاهره الرحمة فانه — لو قبل — لبعث على استمرار الخداع فيهم ، فيكون أشبه بطعم يجر الى الهلاك والفناء لمن ينافقونهم .

والعبادات كلها لا تقبل الا عن اختيار وهو ذلك الممثل فى نية أدائها . وكذلك شئون المعاملات الأسرية ، والمالية ، قبولها مرهون بالمشيئة أيضا.

ومع ايثار الاسلام للارادة الفردية **فى العمل من الانسان فانه لا يتوانى فى قبول فرض الالزام اذا توقف صالح المجتمع عليه :**

- كعدم تسليم الأموال الى أيدى السفهاء
- وانتزاعها من أيدى الأعداء .
- وكاعلان العناصر التى بقيت تتعامل بالربا فى الجماعة الاسلامية بالحرب من الله ورسوله ، ان لم تنته فورا عن التعامل به .
- وكايقاع الحاكم الطلاق على الزوج عند فقد الأهلية فى الاستمرار فى الزوجية وغير ذلك كثير من الأمثلة التى جاء بها الفقه الاسلامى .

وعن ايثار الاسلام لارادة الانسان الفردية فى العمل دون اكراهه عليه سلك الاسلام طريقين فى تمييز حق الله فى أموال الأفراد :

---

(١) التوبة : ٥٣ ، ٥٤ (٢) التوبة : ٤٨ .
(٣) التوبة : ٥٠ .

● **الطريق الأول : أنه فرض الزكاة كعبادة ...** والزكاة جزء معين من المال يجب اخراجه كل عام من أصحاب الأموال بنسب محددة معروفة فى كتب الفقه . وفرضها الاسلام تأمينا للصالح العام ووقاية للمجتمع من أضرار الفاقة والعوز . وبفرضها يجب على المكلف صاحب المال اداؤها ، فاذا امتنع أكره عليها ، ولو بمحاربته . كما وقع فى حرب الردة على عهد أبى بكر الخليفة الأول .

وفى الوقت نفسه جعل الاسلام هذه الزكاة عبادة ، حتى يميل بها الى المشيئة والذاتية ويدفع عنها صورة الالزام والوجوب فى الأداء . اذ من شأن العبادة أن تؤدى فى رضا وفى متعة نفسية ، لأن العبادة لا تخرج عن كونها قربى الى الله . وكما لا يتقرب الانسان الى الله بسوء أو بفاحشة أو منكر — لأنه بغيض — كذلك لا يتقرب اليه بمكره عليه ، لأن المكره عليه غير محبب وبغيض للنفس كذلك .

ولأن الزكاة تعتبر الضمان الأول فى استمرار المجتمع ، ان فى وجوده أو أداء رسالته ، حرص الاسلام على أن **يفصل مصرفها وما تنفق فيه ، كى يغطى جميع الجوانب الضرورية فى حياة المجتمع** ، بما هو ضرورى وأساسى فى المحافظة على الكيان الذاتى ...

فتذكر آية الزكاة :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم »(١)

والتعبير بالصدقات هنا ... قصد منه « الزكاة » الواجبة ، بدليل ما جاء فى آخر الآية من قوله : **« فريضة من الله »** . فليس هناك انفاق فرض كعبادة على المكلفين من أصحاب الأموال الا الزكاة .

وفى تفصيل مصرف الزكاة على هذا النحو ... يلاحظ أن الاسلام ان عنى بالفقراء والمساكين ، فقد عنى بجوانب أخرى لو تركت لكانت هناك ثغرات للضعف فى بناء المجتمع نفسه .

فالمؤلفة قلوبهم : هم الفريق فى الجماعة الذى لو ترك وشأن ايمانه ربما كان شرا على المؤمنين ، ولو أعين ودفع له تحول الى نفع يفيد منه المجتمع . فهو هزيل بايمانه ، قوى فى الانتفاع به .

---

(١) التوبة : ٦٠

والرقاب : قصد منها تحرير الأفراد المؤمنين الذين لم يزالوا مسترقين، على نحو ما كان عليه وضع الانسان فى القديم . ويلحق بهؤلاء فيما مضى تحرير المجموعات أو الجماعات أو الشعوب الاسلامية المستعمرة فى نظام الاستعمار الغربى منذ القرن التاسع عشر .

ووضع الاسلام أهمية على تحرير الأرقاء والمستعمرين من المؤمنين يجعله أحد المصارف الضرورية مما يحصل من زكاة الأفراد ؛ يوضح : الى أى مدى قيمة الحرية الفردية والجماعية للانسان ؛ كما يفيد أنها لا تقل شأنا واعتبارا عن ملء البطون لأصحاب العوز والحاجة .

والغارمون : هم أولئكم المؤمنون الذين تداينوا بسبب الصالح العام أو أدوا خدمات تجاوزت أموالهم ؛ أو الذين يتعرضون لترك أموالهم تحت ضغط العدو أو اضطهاده .

وليس منهم من يتداين بسبب المفاسد أو اتباع المحرمات .

وسبيل الله : هو محض الصالح العام الذى لا تفيد منه طبقة معينة أو مجموعة خاصة من الأفراد . وانما نفعه يعود على الأمة كلها ؛ ويصيب صالح كل فرد فيها اصابة مباشرة أو غير مباشرة : كتقوية الجيش ؛ وتحصين الحدود ؛ وبناء المصانع والسدود ؛ والدعوة الى المبادىء التى يقوم عليها المجتمع فى داخله أو خارجه ...

وقد اقترن الانفاق فى سبيل الله بالايمان فى كثير من آيات القرآن ... ويعتبر الشعار الواضح للاسلام فى ذلك قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »(١) .

وفى حديث القرآن عن « المؤمنين » كثيرا ما يجعل **الانفاق فى سبيل الله جزءا من استحقاقهم وصف « المؤمنين » ...** يقول :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »(٢)

فاذا أضيف الى هذين العنصرين عنصر « الهجرة من أجل الدعوة » ارتفعت درجة المؤمن ووصل الى قمة « المؤمنين » :

---

(١) الصف : ١٠ ، ١١ (٢) الحجرات : ١٥

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون »(١) .

و « الهجرة » كانت عنصرا رفيعا فى الايمان لأنها تنطوى على أن المهاجر قد آثر الدعوة والرسالة على الاستقرار والاطمئنان فى داره وبلده بين أهله ورفقائه .. لأنها تنطوى على أنه ربط نفسه بالدعوة فأصبح يوجد حيث يكون وجودها وازدهارها . ولم يربط الدعوة بوجوده بحيث يتخلى عنها لو تعرض وجوده المكانى للخطر أو التهديد بالخطر بسببها ..

واقتران الانفاق فى سبيل الله بالايمان بالله وجعلهما عنصرين متكافئين فى تقييم الانسان يثير مدى اهتمام الاسلام بالصالح العام فى المجتمع . كما يفيد من جانب آخر أن المصارف الأخرى التى عددتها آية الزكاة السابقة مع مصرف « سبيل الله » قصد من تغطيتها اغلاق جميع نوافذ الضعف فى بناء المجتمع ، وهى نوافذ الحقد والسخط البشرى ، التى توجد بين الأفراد ، أو بعض الطوائف أو المجموعات .

أما ابن السبيل فهو العابر بالطريق الذى لا يجد مأوى ولا كنفا . ورعايته من مال الزكاة الواجبة يعطيه الشعور والاحساس : بأن الأمة فى شخصه ، وأنه يمثل الأمة فهو محوط برعاية الأفراد جميعا . وذلك منتهى التضامن فى المجتمع ، وأوضح تعبير عن التكافل الاجتماعى ..

● أما الطريق الثانى فى تمييز حق الله فى أموال الأفراد فلم يكن بالفرض والتكليف ، وانما كان بالنداء والدعوة ، والتوجيه والاقناع ...

ويكاد يكون الوضع فى الحث على الانفاق من الأموال ، عدا الزكاة ، معادلا فى أسلوب القرآن وآياته للحث على الايمان بالله .. حتى ليصبح — اذا أصبح — المؤمن آخذا من مفهوم ايمانه : الانفاق فى سبيل الله ، كجزء لا يتجزأ من ايمانه ومن تصديقه بالله وكتابه ..

والأسلوب القرآنى فى النداء والدعوة والتوجيه نحو الانفاق الاختيارى يعتمد فى الترغيب ، كما يركن الى التحذير والتخويف ..

كقوله تعالى مرغبا :

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم

---

(١) التوبة : ٢٠

كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير »(١)

وكقوله :

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم »(٢)

وكقوله :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »(٣)

وكقوله محذرا منذرا :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »(٤)

وكقوله :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. »(٥)

وكقوله :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون »(٦)

وكقوله :

« وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ، ان الله يحب المحسنين »(٧)

---

(١) البقرة : ٢٦٥
(٢) الحديد : ١١
(٣) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤
(٤) آل عمران : ١٨٠
(٥) التوبة : ٣٤ ، ٣٥
(٦) البقرة : ٢٥٤
(٧) البقرة : ١٩٥

والتحذير هنا ينصب على عدم الانفاق العام . بدليل ما يذكر من كلمة « **فى سبيل الله** » فى كل آية تضمنت تحذيرا مباشرا أو غير مباشر . ولا نكاد نجد أخبارا فى القرآن عن « المؤمنين » الا وعنصر الانفاق العام موجود فيه فاذا قال القرآن الكريم : « **انما المؤمنون** » بهذا التعبير فسوف نجد هنا الوصف بالانفاق ضمن الأوصاف والنعوت التى يخبر بها عن المؤمنين .

فمثلا قوله :

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »(١) .

وكذا قوله :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »(٢) .

وبلغ من أثر النداء والتوجيه القرآنى والاقناع بالانفاق العام والترغيب فيه بحيث أصبح فى منزلته مساويا للايمان بالله ، أثرا على النفوس — أن سأل بعض المؤمنين عن مقدار ما ينفق فى سبيل الله ، أو وراء الزكاة ، فكان قوله تعالى : « **ويسألونك ماذا ينفقون** »(٣)

وكان الجواب :

« قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »(٤)

وجاء فى آية أخرى ، والخطاب موجه فيها الى الرسول ، وتعتبر **دستورا مركزا لسياسة المجتمع :**

« خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين »(٥)

والعفو فى المال : هو الزائد عن حاجة الانسان فى معيشته . وحاجة من يعوله ، وتجب عليه نفقته حسب العرف وما يتبعه الناس عادة فى معاشهم ..

---

(١) الأنفال : ٢ — ٤
(٢) الحجرات ١٥
(٣) البقرة : ٢١٩
(٤) البقرة : ٢١٩
(٥) الأعراف : ١٩٩

وطالما أن الانفاق فى سبيل الله وراء الزكاة يتبع اختيار الانسان ودرجته فى الايمان فليس هناك مقياس معين « للعفو » فى المال ، وليس هناك مقياس يصح الاختلاف فيه . اذ ليس هناك مجال للاختلاف ، لأنه ليس هناك مكان قبل ذلك للطلب والالزام .

والأمر موكول الى ايمان المؤمن . والى تقديره الخاص ، والى مقدار تقربه من الله . وأمله فى رضاه عنه .

وكلما كانت الدعوة الى الله والايمان به قويا كلما كان المؤمن أكد تفاعلا . وأوسع انفاقا بماله ، وأشد استعدادا للتضحية بنفسه وبأولاده فى سبيل الله ، وكلما ركدت الدعوة وخف الايمان فى القلوب عاش الانسان فى « انفصالية » بين دينه . وبين سلوكه فى الحياة وكان أكثر استعدادا للتأثر بدعوة أقوى فى أسلوبها وعرضها ولو كانت مناوئة لما يدعو اليه دينه .

* * *

وحديثنا هنا هو حديث عن **« الاسلام كنظام للحياة »** . وكدين يسير مع الطبيعة البشرية ...

فطرة الله التى فطر الناس عليها :

ولا يعيب الاسلام — كما لا يعيب أى نظام للحياة صالح فى نفسه — أن يتخلف عن اتباعه « أتباعه » أو يركد الايمان به فى نفوسهم . ولكن يعيبه أن يبدو فيه ما لا يتلاءم مع الطبيعة البشرية كطبيعة انسانية ، أو يبدو فيه ما يحول دون توجيه الانسان الى نضجه الانسانى ورشده ، أو ما يؤدى الى تعويق المجتمع عن أن يكون مجتمعا انسانيا كريما . بعد الايمان به وأخذه فى التطبيق العملى كلا وليس مبعضا .

ولكن — تمشيا مع منهج الاسلام فى تقدير ارادة الانسان واختياره حتى مع ما وجب عليه أداؤه . كما رأينا من جعل الزكاة عبادة — **اذا فرغ قلب صاحب المال من الضمير والانفعال بتوجيه القرآن فى شأن الانفاق من المال فى سبيل المصلحة العامة ، فان أولى الأمر أن يأخذ من المال حتى أكثر « العفو »** ، ان اقتضى سبيل المصلحة مزيدا من المال فوق الزكاة المفروضة .

وبقدر هذه المصلحة وحاجتها الى المال يكون اجراء ولى الأمر فى الاخذ من أموال الأفراد ... وحدود الأخذ هى من « بعد الزكاة » الى«العفو» فى المال . وذلك رعاية لحق الله فى المال . ورعاية كذلك لسبيل الله الذى يجب أن لا يصد .

ويكون شأن من لم ينفق هنـــا فى سبيل الله من نفسه كشأنه لو منـــع الزكاة ، وموقف ولى الأمر فى الحالين واحد ، طالمـــا تقضى المصلحة العـــامة المزيد من المـــال فوق أنصبة الزكاة .

وكون الزكاة فريضـــة واجبـــة الأداء من أول الأمر ، لا يغـــير الموقف شيئا ... لأن الفريضة والوجوب منصبان على المقدار الذى حدد فى الزكاة، كضمان أولى لمعاونة المجتمع فى بقائه وأدائه لرسالته ، واعتمـــادا من جانب آخر على ايمان المؤمنين سيدفع بعضهم — على الأقل — حتما الى اخـــراج مقادير أخرى فوق ذلك الذى حدد فى الزكاة — بمحض اختيـــارهم وحبهم فى الله . وعندئذ لا حاجة لولى الأمر أن يأخذ من المـــال بطـــريق الالزام رعاية لحق الله بعد ذلك ، ما دام لم تدع حاجة ملحة الى الأخذ من جديد .

والا اذا لم يكن ذلك هو المقصود ووقف الأمر عند حد المقدار المعين فى الزكـــاة ، ولم يجز لولى الأمر أن يتجـــاوزه عنـــد الضرورة ، لأى سبب من الاسباب ، لأن ذلك هو الفريضة المقررة فى المـــال — لبقى الحـــكم معطلا فى قوله تعالى : **« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »**(١) اذ لاشك أن الأمر بالمعـــروف من ولى الأمر مطلوب فى كل وقت ، ولاشك أيضـــا ان الاعراض عن الجـــاهلين مطلوب من المؤمنين وفيهم ولى الأمـــر فى كل وقت كذلك ، صونا لنشاطهم من التبدد والاستهلاك فى غير جدوى .

وتبعا لذلك يكون أخذ « العفو » من المـــال فى سبيل الله مطلوب من ولى الأمر كذلك .

وغاية الأمر أن أخذ « العفو » ليس دفعة واحدة ، وانما بالتدريج على حسب الضرورة . لكن العفو كله هو نهاية المطلوب على أى الأوضاع .

وغاية الأمر كذلك أنه ان دفع هذا «العفو» — كما هو مؤمل ومنتظر — بارادة صاحب المـــال أخذه ولى الأمر ، دون حاجة الى الزام من جانبه ... والا كان الالزام به رعاية لحق الله ، وولى الأمر هـــو أول المطالبين برعاية هذا الحق .

وما جاء فى القرآن مطلـــوب من المؤمن أن يؤمن به كله ، وأن يعمل به كله بدون استثناء .

---

(١) الاعراف : ١٩٩

وما نوعه الفقهاء فى (الأحكام) — مما هو واجب أو مندوب فى شأن ما يطلب أداؤه من الانسان — ليس الا توضيحا لقدر الضرورة فى كل من هذه الأحكام . بحيث أن ما كان مندوبا اليوم قد يكون واجبا أداؤه غدا ، ان استبدت الضرورة ودعت سبيل الله الى ذلك .

لكن لن يتحول الواجب الى مندوب ، لأنه من أول الأمر من الاصول الضرورية لقيام المجتمع وبقائه ، والتى نيط بها استمرار المجتمع فى وجوده بحكم الفطرة والسنة الطبيعية .

واذا كان الواجب من الأحكام الفقهية مطلوب أداؤه ، وكذلك المندوب مطلوب أداؤه كذلك ... **فالفرق بينهما هو أن مطلوبية المندوب قائمة على الاختيار ، طالما لا تدفع الضرورة الاجتماعية والمصلحة العامة الى الالزام، بينما مطلوبية الواجب قائمة من أول الأمر على الالزام ، ولا يتغير وضعها اطلاقا .**

ليس فى المال فى الاسلام « تبرعات » على الحقيقة :

وقد سرى الى أذهان كثير من الناس — ربما بسبب تقسيم الفقهاء ما يطلب أداؤه من المؤمن الى واجب والى مندوب — أن وضع المال فى الاسلام يحتمل « التبرعات » ... وسموا ما يؤديه صاحب المال من ماله بعد الزكاة الواجبة بارادته الحرة واختياره تبرعا واحسانا !

وفى نظرى أن **المال فى الاسلام هو حقوق ...** وليس فيه مكان لتبرع!

وأن تسمية التبرع بالاحسان ... تجاوز واضح !

فالمال فى الاسلام كما أسلفنا — يتعلق به حق الفرد المعين ، وهو صاحبه ومن بيده المال ، ويتعلق به حق الله ، وهو ما يكون فى مصلحة الآخرين بعد صاحب المال فى الجماعة .

وحق الله ... بعضه يلزم بدفعه صاحب المال فى فترات معينة .

وبعضه — تكريما للانسانية — يدفعه صاحب المال من ذاته وبارادته الخاصة التى أصبحت بعد الايمان بالله مرتبطة بمشيئته جل شأنه ، وتكيفت بوصاياه وبتوجيهه .

واختيار الانسان فى دفع ما يدفع لا يغير من كونه « حق الله » ، كما أن نسبة « الحق » الى الله لا يغير كونه مطلوبا ... وما الحق فى جوهره الا مطلوب فى ذاته . لأن طرفا آخر ارتبطت مصلحته به فى المجتمع .

وان الاختـــلاف فى طريقة أداء الحق لا يغير من وضـــعه ومنزلته ... والصفة التى تتبع أداءه تلحق جانب المؤدى ولا تلحقه هو فى نفسه .

وحق الفرد الشخصى فى المـــال يفصل فيه ولى الأمر عند المشـــاحنة ، وحق الفرد الدائر يرجع فيه الى الله أولا ثم الى ولى الأمر ... وهـــو اذن لا يسقط فى كلتا الحالتين .

وجاء فى وصف « المتقين » فى القرآن ـــ ضمن ما يوصـــفون به ـــ أنهم يرون من أنفسهم فى أموالهم حقا لغيرهم من أصحاب الحاجة .

« .. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(١)

● **وكلمة « الصدقة » : وردت فى القرآن تعبيرا عن « الزكاة » ...** وهى حق واجب الأداء ، تأمل قوله تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله »(٢)

وقوله :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، ان صلاتك سكن لهم »(٣)

فقد قصد القرآن فى الآيتين الزكاة الواجبة .

وما جاء فى سورة المجادلة من قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرســـول فقدموا بين يدى نجـــواكم صدقة ، ذلكم خير لكم وأطهر ، فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم »(٤)

فشأنه شأن « الكفارات » فى الارتباط بوضع معين ، وحالة شخصية معينة .

ويبقى الفرق بعد ذلك هنـــا أن « الكفـــارة » عن اثم يقترف ، وهنـــا لتحقيق رغبة خاصة ، ولذا أطلق على ما يخرج أو يقدم اسم « صدقة » دون اسم كفارة .

● **و « البر »** : الذى ورد فى القرآن لم يرد الا تعبـــيرا عن الايمـــان الصادق :

---

(١) الذاريات : ١٩ (٢) التوبة : ٦٠
(٣) التوبة : ١٠٣ (٤) المجادلة : ١٢

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »(١) .

وفى هذه الآية ما يفيد — من جانب آخر — أن **حق الله فى المال ، زكاة أو غير زكاة ، واحد فى القيمة والاعتبار ، وأنه كل لا يتجزأ ، فى كونه عنصرا من عناصر الايمان الصادق .**

فقوله فى آية « البر » السابقة : **« وآتى المال على حبه » ...** وقوله كذلك فيها : **« وآتى الزكاة »** — تفصيل لحق الله ، ولا يتضمن بحال تمييزا فى القيمة والدرجة .

ويكاد يكون المصرف المالى الذى نص عليه فى هذه الآية فى جانب حق الله وراء الزكاة ، هو نفس ما نص عليه فى آية الزكاة الواجبة التى بدئت بقوله : **« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله »(٢) .** مما يدل دلالة واضحة على عدم الاختلاف فى منزلة الحق ، مهما تنوعت طرق أدائه ، لأن هدفه واحد ولأنه ارتبطت به مصلحة لطرف واحد .

● **أما « الاحسان » فقد ورد فى القرآن تعبيرا عن صدق الايمان ...** والمحسن هو الصادق فى ايمانه ، وهو الانسان الكريم فى سلوكه وتصرفاته . ومن بين سلوكه الكريم وتصرفاته الانسانية التى تعبر عن صدقه فى ايمانه أن يخرج من ماله لغيره بمحض اختياره وارادته الذاتية . فالاخراج من المال جزء فى مفهوم الاحسان ، ولكن ليس هو الاحسان .

يقول الله تعالى :

« ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(٣)

فكان انفاق المال جزءا فى مفهوم الاحسان . وليس هو كل مدلول الاحسان .

---

(١) البقرة : ١٧٧ (٢) التوبة : ٦٠

(٣) الذاريات : ١٥ — ١٩

وعلى هذا النحو قوله تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »(١)

فالاحسان المأخوذ من كلمة المحسنين هنا — مرادف لمعنى التقوى التى أخذت من كلمة « للمتقين » ، لأن الأوصاف التى ذكرت هنا ذكرت فى وصف المتقين . والتعقيب « بالمحسنين » فى آخر الآية ليوضح أن المتقى محسن ، وليس فى تصرفه ما يستقبح ، وليس فى سلوكه ما يشين ، وليس فيه الا ما يمتدح به ، والا ما يعد حسنا له وجمالا فى خلقه .

وقوله تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ... »(٢)

يوضح تماما أن الاحسان غير البذل والعطاء . والا لم يكن لقوله تعالى بعد أن ذكر الاحسان — **« وايتاء ذى القربى »** مكان فى الآية .

كما يوضح أن **درجة الاحسان فوق العدل وبعده ...** فالعدل قائم على « التوازن » فى الأخذ والاعطاء ، أما الاحسان فهو أعمق ووراء ذلك . هو الانسانية فى قمتها ، هو الزيادة الكريمة فى المعاملة !

● **فرد التحية :** أن تضمن زيادة فى التكريم كان احسانا **« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »(٣) .**

● **والطلاق :** ان صحبه أكثر من الحقوق المطلوبة فيه للزوجة مما يدل على انسانية فاضلة كان احسانا **« الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان »(٤)**

● **« والاقناع فى المجادلة :** اذا أضيف اليه انسانية الأسلوب وتهذيب القول كان احسانا **« وجادلهم بالتى هى أحسن »(٥)**

● **وأعطاء المال :** ان صحبه من القول ما ينفر فى قبوله خرج الاعطاء من الاحسان ، **« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »(٦)**

---

(١) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤ (٢) النحل : ٩٠
(٣) النساء : ٨٦ (٤) البقرة : ٢٢٩
(٥) النحل : ١٢٥ (٦) البقرة : ٢٦٣

منطق الرسالة الاسلامية :

وان ما يعطى من المـــال ويخرج منه للانفـــاق العام ــ أو فيمـــا وراء الانفاق الشخصي والأسرى طبعا ــ هو **حقوق مطلوبة للآخرين طلبا مؤكدا ..** يسئل صاحب المـــال فى دنياه وآخرته عن عدم أدائه أو التلكؤ فى اخراجه . ولا يضير اطلاقا أن يسميه المخرج من جانبه تبرعا ، أو منحة ، أو عطاء ، أو احسانا ، أو ما يشاء من التسمية .. فان التســـمية لا تغير فى طبيعته ولا فى ارتباط حقوق الآخرين به فى الحياة ، وارتباط المجتمع به فى بقائه وأهدافه .

ومنطق الرسالة الاسلامية نفسه لا يختلف اطلاقا عن مشروعية هـــذا الحق وتأييده . فالرســـالة الاســـلامية ــ ككل رســـالة ســـماوية ــ ثورة المستضعفين فى الأرض على الأقوياء والطغاة المستبدين بما وقع فى أيديهم من مال ، أو ورثوه من جاه ، أو تملكوه من سلطة وعصبية .

واذا كانت الرسالة هى ثورة المستضعفين ــ وليسوا الضعفاء ، لأنهم أقوياء باعتبارهم الانسانى وبما خلقوا عليه من طبيعة بشرية مكرمة غير ذليلة ــ فانها تترك فى مبادئها ثغرة يعود فيها الطغيان والاستبداد من جديد ــ لأى سبب ، ومعتمدا على أى سند ... والانسان يطغى باحتـــكار المـــال . أو عصبية الولد .

((كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى))(١)

((ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر))(٢) .

ان الرسالة الاسلامية **لم تكن تطويرا لعرف قائم** ، أو لنظام فى الحيـــاة كان مأخوذا به ، أو لأوضاع سار العمل عليها فى المجتمع البشرى ــ العربى وغيره ــ وقت أن قام الرسول يدعو اليها ...

لو كانت تطويرا ... لمـــا كانت هنـــاك حاجة ملحة الى أن يطلب من الرسول والقلة التى آمنت برســـالته ــ ثم من المؤمنين عامة بعـــد ذلك ــ الصبر ، والتضحية بالمـــال والولد والنفس ... لمـــا كانت هناك حاجة الى التهوين من شأن الدنيا ومتعها فى نظرهم وأيمانهم بها ، حتى لا يتحول نشاطهم كله الى الاستغراق فى الحصول عليها ، وينصرفون عن الرسالة والثبـــات فى الايمان بها ونشرها وتطبيقها فى الحياة التى يحيونها ليكونوا نماذج لمن عداهم .

---

(١) العلق : ٦ ، ٧ (٢) التكاثر : ١ ، ٢

لو كان تطويرا ... لما كانت هناك حاجة ملحة الى كل ذلك ، لأن التطوير سير طبيعى بل هو جار بالفعل . وهو التزام بالاتجاهات القائمة فى المجتمع ، بغض النظر عن مراجعة صلاحيتها أو عدمه .

أما الثورة : فأساسها أن تقوم على « المراجعة » لنظام الحياة فى كل اتجاهاته وأصول هذه الاتجاهات ... وتكون من الصالح منها ، ومن جديد يضاف اليها مبادىء وفلسفة تلتزم بها فى التطبيق وفى الدعوة الى الايمان بها ، وربما يكون الجديد هو تعديلا لقائم أو كشفا لأصول ماضية حجب صلاحيتها دخيل عليها ، أو فهم سقيم لها ، أو تطبيق انحرف بها عن الاستقامة الذاتية التى هى من خواصها .

وقد كان الاسلام هو ذلك ..

انه دين الله الذى كان للبشرية ، منذ كانت هناك رسالة الهية ... انه أصول ومبادىء توجيهية للطبيعة البشرية ، حسب خصائصها وامكانياتها وطاقاتها .

ورسالة « الرسول محمد » عليه السلام به : هى كشف لتلك المبادىء والأصول ، التى خرجت عن صلاحيتها بسوء الفهم والتأويل أو بالانحراف بها فى التطبيق العملى .

والمسىء فى فهمها وتأويلها ، والمنحرف فى تطبيقها ... هو « الانسان » الذى تلقاها وتداول الايمان بها جيلا بعد جيل الى رسالة رسول آخر ، الى أن انتهى المطاف بالرسالة التى محمد صلى الله عليه وسلم .

والانسان لا يسىء الفهم ، ولا ينحرف فى التطبيق ، الا اذا استهدف تحقيق غرض شخصى أو حرص على بقاء وضع خاص ...

● يقول القرآن الكريم فى شأن « الاسلام » كدين :

« ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم »(١) .

● ويقول فى شأن التسمية بـ « المسلمين » :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »(٢)

---

(١) آل عمران : ١٩ (٢) الحج : ٧٨

● كما يقول فى شأن « كتاب الاسلام » :

« قل آمنـا بالله وما أنزل علينـا وما أنزل على ابراهيم واسـماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الاسلام دينـا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »(١)

ومثل :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا »(٢)

ـ فالدين عند الله كان الى محمد وفى وقت محمد .. هو : « الاسلام »
ـ و « المسلم » ... هو من آمن بالله وكتـاب الله منـذ أرسـل به رسوله الى الناس قبل محمد وفى وقت محمد .

ـ والقرآن ... وحى الله الى محمد ؛ ليس الا كتاب الله الأصيل الذى أرسلت به الرسل الى أقوامهم قبل محمد .

ولذلك كان أهم ما نصح به القرآن المؤمنين به أن لا يشقوا على الرسول محمد عليه السلام فى الاستجابة الى ما يطلبون ؛ كى يستمر هو وهم فى تلك الخطوط المستقيمة التى رسمها القرآن فى سلوك الأفراد وفى علاقات بعضهم ببعض ، فلا يضطرون الى خروج فى التأويل والشرح ، أو الى انحـراف فى التطبيق العملى . وعندئذ يصير أمرهم الى ما صار اليه أمر غيرهم من كتاب الله . تقول الآية الكريمة :

« واعلموا أن فيكم رسـول الله ، لو يطيعكم فى كثـير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفـر والفسـوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون »(٣) .

فخصائص « الثورة » ... متوفرة فى رسالته عليه السلام !

وقد كانت ثورة « المستضعفين »(٤) ضد الأقوياء المعتـدين فى المجتمع البشرى ... لأنه لو لم يكن هناك اعتداء وطغيـان من جانب ، واستضعاف

---

(١) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥ (٢) النساء : ١٢٥
(٣) الحجرات : ٧
(٤) وهو عليه السلام فى مقدمتهم : **« ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى »** (الضحى : ٦ ـ ٨) .

واستذلال وامتهان بشرى من جانب آخر بين أفراد المجتمع ، لما كانت هناك حاجة الى « رسالة » !!

ولو أن الأقوياء الطغاة فى المجتمع يراجعون أنفسهم من وقت لآخر ، ثم يسلكون المسلك الانسانى الكريم ازاء غيرهم ، لما بقوا طغاة معتدين ... ولما كانت طبيعة الرسالة ان جاءت الا تأكيدا ، ولم تكن لها « الطبيعة الثورية » !

لكن طبيعة الانسان تدفعه الى أن « يطغى » ان رأى نفسه استغنى!!

واذا طغى فلا ترده الا قوة أخرى تهزه ، تكون أشد منه وأنكى !!

وهذه القوة الأخرى لن تكون الا قوة الايمان ... لأن الطاغية المعتدى لن يصل الى طغيانه واعتدائه الا اذا جمع كل القوى المادية وسيطر عليها وحده أو هو وعصابته .... وعندئذ لا يبقى من قوة فى مجال الحياة الانسانية فى المجتمع الموزع بين قوى وضعيف ، وطاغ ومطغى عليه الا قوة الايمان بالحق الطبيعى ... ولن يبدأ هذا الايمان الا من جانب المستضعفين وحدهم أولا .

ومن هنا كانت رسالة الاسلام ثورة ... لأنه يقوم أولا على قوة الايمان بالحق الطبيعى ، وكانت ثورة المستضعفين فى وجه الطغاة الأقوياء : وكذلك كل رسالة سماوية كانت ثورة قام بها المستذلون فى الارض :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما أستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم **الفاسقون » (١)**

ومن هذه الآية يتضح :

● أن ثورة المستضعفين فى الأرض **ثورة مستمرة** . لأنها تخضع لقانون طبيعى .

● وأن اتجاهها فى الحياة الذى تأخذ به نفسها هو **اتجاه الحق والعدل وتكافل المجتمع ومحاربة الطغيان والاعتداء** ليبقى السلام وحده هو الخط المستقيم للبشرية فى السلوك والتكامل **« وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم »** . **« وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »** .

---

(١) النور : ٥٥

● **وانه بزوال الطغيان والطغاة لا تكون هناك عبـــادة الا لله وحده ،** لا يشرك به .

● ثم بعد استقرار السلام والعدل ليس هناك مجال لمنكر له ... ان المنكر له عندئذ يكون من الفاسقين العابثين !

* * *

وعلى نحو ما وعد به الله هنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعـــد به موسى من قبل ، وكان وضع المجتمع اذ ذاك يشبه وضعه على عهد محمـــد صلى الله عليه وسلم من الانقسام الى أقوياء طغاة ، ومستضعفين مستذلين فى اعتبارهم البشرى :

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »(١)

والمستضعفون ... هم الذين يبدأون الايمان دائما بالثورة على الطغيان والعدوان ، وهم الذين يجمعون القوى فى مواجهته ، وهم الذين يتحملون عبء المقاومة ، وهم الذين يضحون فى سبيل ذلك ... «سبيل الله» بالأنفس وبما يملكون من مصادر رزقهم : من حرف صغيرة ، وتجارة متواضعة ، ورعى لبعض من الغنم أو الابل ... وما شاكل ذلك .

واذا ضحوا فى سبيل الايمان بالحق بهذه المصادر المتواضعة فى الرزق فان هذه التضحية كبيرة فى واقع الأمر لأنها تعلقت بكل مصدر معيشتهم . لهم ولأولادهم وأسرهم ومن يعولون من ذوى الأرحام .

والطغاة المستبدون ... قد يتعللون فى ردهم لرسالة الحق والعـــدل وتكافل المجتمع ، وفى تمـــاديهم فى غيهم وعبثهم وفســـادهم واستضعافهم لمن استضعفوهم ممن عداهم — باتباع هؤلاء المستضعفين وايمانهم بتلك الرسالة . حتى لكأن هؤلاء — من فرط وضاعتهم فى الاعتبار البشرى فى نظرهم — بايمانهم بتلك الرسالة كانوا حجة عليها ، ودليلا على عدم صلاحيتها ، وبالتالى على عدم استحقاقها القبول من كبرائهم وسادتهم :

---

(١) القصص : ١ — ٦

فيقص القرآن ما وصف به أعداء الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أتباع هذه الرسالة فى قوله :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه »(١)

فسبق المؤمنين — فى قول هؤلاء الكافرين وتقديرهم — الى الايمان بالقرآن دليل أولا على عدم خيرية القرآن نفسه . وبالتالى دليل على عدم الاعتداد بالمؤمنين أنفسهم وبما يصنعون . أذ لا يملكون الصلاحية فى البشرية والاعتبار الانسانى حتى يكون ما يقدمون عليه أمرا جديرا بالاتباع والايمان به . وذلك لأنهم ليسوا من السادة الأشراف فيهم .

كما قالوا :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(٢)

فوصفوا رسول الله فى هذه الآية بأنه ليس من عظمائهم .

وكان رد القرآن عليهم فيما جاء أولا أنها تعلة فحسب على نحو ما ، فاذا لم يهتدوا بكتاب الله لا يرجعون عدم الهداية الى أنفسهم وما ران على قلوبهم من باطل ، بل سيقولون فى وصف القرآن نفسه : هذا أفك قديم ...

« واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم »(٣)

وكان رده عليهم فيما جاء ثانيا :

« أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا »(٤)

كما يقص أيضا :

« يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »(٥)

فقد وصفوا أنفسهم بالأعزاء — السادة — ووصفوا المؤمنين بالأذلاء — العبيد — ولذا كان رد القرآن عليهم وعلى سبيل التأكيد : أن العزة والسيادة بالحق وفى سبيله ، وفى الانسانية والاعتبار البشرى هى للمؤمنين ورسولهم بالأولى ، ولله جل جلاله رب العزة ..

---

(١) الأحقاف : ١١
(٢) الزخرف : ٣١
(٣) الأحقاف : ١١
(٤) الزخرف : ٣٢
(٥) المنافقون : ٨

ويقول على لسان الذين كفروا من قوم هود :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »(١)

فاتخذوا سببا لكفرهم ومعارضتهم أن الرسول بشر ، وأن الذين اتبعوه من الطبقة الدنيا ، وليست الا تلك الطبقة التى غلبت على أمرها بفعل الطغيان وتعسف الاستبداد ممن يريدون أن يكونوا : « علية القوم » ووجهاءهم . وهؤلاء الذين غلبوا على أمرهم أيضا ليسوا من أصحاب الشأن والأمر فيهم .

ويقص القرآن كذلك ما وصف به أعداء رسالة موسى عليه السلام المؤمنين بها فى قوله :

« ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين »(٢)

فعدو موسى الأول يحاج قومه ليقنعهم بعدم اتباعه بأنه غنى ذو ملك وغير ، وأن موسى فقير مهين . ولو جاء بحلى من ذهب تدل على قيمته ومنزلته لكان هناك أمل فى اتباعه والايمان به .

* * *

وهذا الذى ووجه به محمد — وموسى وهود قبله — ووجه به نوح أبو الرسالات فى قول القرآن الكريم :

« كذبت قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم أخوهم نوح الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجرى الا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . ان حسابهم الا على ربى ، لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . ان أنا الا نذير مبين »(٣)

ومثل هذا كان جواب ثمود الى رسولهم صالح عندما قال لهم :

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . »(٤)

---

(١) هود : ٢٧ (٢) الزخرف : ٥١ — ٥٣
(٣) الشعراء : ١٠٥ — ١١٥ (٤) الأعراف : ٧٤

فما كان جواب من طغى منهم الا أن قال :

« قال الملأ الذين استكبروا من قـــومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون »(١)

والى هنا يتضح :

- **أن رسالات الرسل ثورة**
- **وأنها ثورة المستضعفين** على المتجبرين فى الأرض
- **وأنها ثورة الحق** على الباطل
- وأن الحق الذى جاءت به هو **الحق الطبيعى** الذى هو للبشر جميعا
- وأن منطقها لذلك هو **منطق الحق** ، وأن قوتها هى قوة الايمان به
- وليس منطق الاستجداء والاستخذاء : فى المال على الأخص .

* * *

وأخيرا اذا فهم من الاسلام أنه يرى فى المـــال أنه مصدر اغراء وفتنة ، بجانب أنه ضرورة فى وجوده فى الحياة لمعايش الناس وأحوالهم ... فليس من المستبعد أن يفهم منه أيضا أن وجـــود حق الله فى المـــال أمر ترتب على ذلك ، أو هو بمثابة نتيجة له .

فلولا تقرير حق الله فى المـــال ربما كانت الفتنة بالمـــال أشـــد ، وتأثير اغرائه أكثر . فالقاعدة أن يستصحب الأصل خصائصه فيما له من آثار تنتج عنه ، الا اذا تدخل ما هو أقوى منه ، أو ما هو مساو له فى القوة ، فلا تفعل عندئذ خصائص الأصل فعلها كاملا .

والسعى لتحصيل المـــال وانمائه طبيعى أصيل فى الانسان فلا يحـــد اغرائه فى الدفع الا خشية الانسان ممن هو أقوى منه ، وهو الله . ولـــذا : اعتبار الله ذا حق فى المـــال ـــ بعد الايمان بأنه مالك الملك كله ومقسم الأرزاق والمعايش بين الناس جميعا ـــ يثير لدى الانسان توقفـــا فى الاندفاع وراء فتنة المـــال ، كما يثير فيه وعيا للأخذ بوصايا الله فى طريق تحصيله وانمائه .

---

(١) الأعراف : ٧٥ ، ٧٦

ومن هنا أيضا الايمـــان بأن الله مالك الملك ومقسم الأرزاق بين جميـــع الناس لا يحتمل اطلاقا أى سبب للتواكل والقعود عن السعى لتحصيل المـــال أو انمائه من الانسان . وانما ليحمل فقط المؤمنين على عدم الخصومة والفرقة بسبب المال ، ان هم سعوا الى تحصيله أو انمائه .

فطالما اعتقدوا أن البسطة فى المـــال والضيق فيه مرهون بمشيئة الله :

« ان ربك يبسط الرزق لمن يشـــاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا »(١)

وطالما اعتقدوا أيضا انه لابد أن يكون وضع الرزق فى معايش النـــاس على هذا النحو من السعة والضيق لصالح المجتمع وأمنه :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء، انه بعباده خبير بصير »(٢)

طالما اعتقدوا هذا وذاك فلا مجـــال فى سعيهم ونشـــاطهم للبغضـــاء والشحناء ولا للحسد والحقد . والسبيل الى الانتفاع بنعمة الله فى المـــال ـــ بعد الجهد واعداد النفس للسعى هو التوجه الى الله فى اخلاص وفى عمل صالح :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب ممـــا اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، أن الله كان بكل شىء عليما »(٣)

واذن « ظل » الله فى المـــال تبدو ضرورته الآن ـــ كضرورة المال نفسه ـــ فى حياة الناس ، ان هم نشدوا السلام فيها .

فلم يكن الايمان بملكية الله للمـــال معوقا ولا معطلا . بل كان دافعـــــا ومثمرا .

وعلى هـــذا النحو : ما يذكر فى القرآن من تهوين بالحياة الدنيـــا . فى مثـــل قـــوله :

« اعلموا أنما الحياة الدنيـــا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينـــكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفـــار نباته ثم يهيج فتراه مصـــفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »(٤)

---

(١) الاسراء : ٣٠ (٢) الشورى : ٢٧
(٣) النساء : ٣٢ (٤) الحديد : ٢٠

لا يراد به التزهيد فى الدنيا ، وحمل الناس على الانصراف عنها وتركها والا لما كان هناك مجال لحياة الانسان ، ولا لكفاحه ضد الباطل والعبث ومقاومة الفساد والطغيان « عمل الشيطان » ولا كان هناك موضع لاختباره وابتلائه ومعرفة المؤمن الجاد من المنافق المستور ، ومن الكافر السافر .

وانما قصد القرآن بوصف « الدنيا » كما وصفها هنا الا يكون متاع ما فيها مبعث حقد وخصومة وتفرقة وقلق ، بدلا من أن يكون مصدر دفع لمقاومة الخصومة والتفرقة والاضطراب والشر فى صوره العديدة :

- فالدنيا مطلوبة ... ولكن لرسالة السلام
- وهى غاية ... ولكن ليست غاية أخيرة

ويستحيل أن يطلب شىء ، ثم تكون هناك دعوة للانصراف عنه ...

يستحيل أن يكون الشىء غاية ، ولا يسعى الى ادراكه .

انما الأمر كما ذكر : سعى وتحصيل لمتع هذه الحياة . واستمتاع بها كذلك . ولكن فى غير اسراف يجر الى عبث ، فتطاحن ، فقتال ، ففناء :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ... »(١)

ان « ظل » الله فى المال من شأنه أن يحول دون الشقاء الذى قد ينجرف اليه الانسان بطبيعته المركبة ، وأن يحول أيضا دون الطغيان والاستذلال به .

« ... كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما »(٢)

* * *

ومع أنه يبدو أن لا مانع من جعل « حق الله » مترتبا على اعتبار أن المال فتنة ، فانه لا مانع كذلك من أن يعتبر « حق الله » فى المال نظرة أخرى فى الاسلام بجانب نظرته اليه على أنه ضرورة وفى الوقت نفسه مصدر اغراء .

ان الأمر — كما يبدو — أمر اعتبار وتقدير . والا فنفع المال نفعا سليما مرتبط بالنظرتين معا ، ولا غناء لاحداهما عن الأخرى فى سلامة بناء المجتمع البشرى واستقراره ..

---

(١) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ (٢) الفجر : ١٧ — ٢٠

ان أصول النظرة الاسلامية تتلخص الآن :

● **أولا : فى اعتبار الله مالكا أصلا للمال**

وعن هذا الاعتبار تراعى « حدود الله » فى المـــال . وهى تلك الحدود التى تحرم تحصيل المـــال أو تنميته واستثماره على حساب الضعيف وبدون بذل مجهود بشرى . كما تحـــرم الاسراف أو التقتير فى انفاقه . والسفه فيه والخروج به عن وظيفته التى أشارت اليها الآية ((... **التى جعـــل الله لكم قياما**))(١) وهى الوظيفة الاجتماعية ـــ الى الفاحشة والمنكر وما يسبب توتر العلاقات بين الأفراد أو يضعف مجتمع المؤمنين .

وعن هذا الاعتبار أيضا : يراعى « حق الله » فيه . وهو حق المجتمع : حق تماسكه . وحق بقائه . وحق أدائه لرسالته .

● **ثانيا : فى أستخلاف الانسان على المـــال وتفويضه فيه**

وعن هذا الاعتبار يلتزم الانسان الذى بيده المـــال برعاية حـــدود الله وحرمات الضـــعفاء فى جانب جمع المال واستثماره . ثم برعاية حق الله فى الانفاق منه فى حدود العفو الزائد عن حاجته التى يقيسها بمقياس « الوسط » لا هو الى أدنى فيمسك ولا هو الى أعلى فيبذر .

● **وثالثا : فى أن أداء الانسان فيما أستخلف عليه يقوم على الاختيار ، دون الاكراه .**

وعن هذا الاعتبار يحتفظ من بيده المـــال بكرامته الانسانية فلا يلزمه أى انسان آخر معه فى مجتمعه بما يفعل . بل يلزمه ايمـــان نفسه من نفسه .. تلزمه انسانيته التى خلقت فيه وتكونت منها ذاته .

وعن هذا الاعتبار يكون المجتمع الاسلامى مجتمعا انسانيا لا اكراه فيه ، ومجتمعا أخلاقيا تدفعه الارادات الذاتية وحـــدها . ومجتمعا متحابا متسوادا تسوده الطمأنينة ويشيع فيه الرضاء النفسى .

وهذا هو الاطار الذى تحدده النظرة الأصـــيلة فى الاســـلام الى الملك وتصريفه . ولكن الاسلام فى طريق الوصول الى هذا الاطار واجه أحداثا كأى مجتمع جديد يقوم على انقاض مجتمع قديم . وكان له موقف منها تبعا للظروف التى كانت تحتم هذا الموقف . الى أن استخلص نفسه وثبت دعائمه وترسم اطار نظامه العام :

---

(١) النساء : ٥

واجه أحداثا فى الملكية فرأى فيها آراء مختلفة ، ولكنها جميعها تعود الى هدف واحد وهو تأمين المجتمع الجديد على سلامته وعلى قيمه .

ومبادىء الاسلام كما جاءت فى القرآن الكريم فى الملكية هى أكثر ما تكون لمنع « الاستغلال » أو لتصفية رواسب الماضى منه . ثم وضع حد تبتدىء معه علاقات انسانية جديدة بين الأفراد : هى علاقات الأخوة والمحبة . ولكنها لم تنزل الى مجال « الملكية العامة » أو « الملكية الخاصة » وأيهما أولى أو أوجب بالاتباع . فطالما وضع حدودا ووسائل لمنع الاستغلال البشرى عن طريق الملكية للمال ، وطالما حدد الهدف من المال ونظرته اليه فيستوى عندئذ أن تكون هناك مباشرة « خاصة » أو « عامة » لتصريف شئون المال ، ما دامت هذه المباشرة تدور فى اطار تلك الحدود وتحقق الهدف للوظيفة الاجتماعية للمال .

والمباشرة « الخاصة » لشئون المال هى أسبق عادة فى تاريخ تكوين المجتمعات البشرية من المباشرة « العامة » باسم هذه المجتمعات تبعا لأسبقية وجود الفرد على قيام المجتمع ، أسبقية ليست اعتبارية فقط وانما هى أسبقية فى السعى والنشاط والتحصيل للفرد نفسه ولمصلحته الذاتية .

وقد عاصرت الدعوة الاسلامية عند قيامها هذه المباشرة « الخاصة » فى شئون المال وعقبت عليها بما تكون منه ما نسميه بالاطار الذى يحدد النظرة الأصيلة الى الملك وتصريفه . وجعلت فى واقع الأمر من المباشرة « الخاصة » للمال ميلا « عاما » فى رعايته وانفاقه واستثماره . وبذلك نقلت هذه المباشرة الخاصة للمال من دائرة « الذات » الى دائرة « الأمة » واستهدفت بها المصلحة العامة . وسبيل الله ، بجانب المصلحة الخاصة التى هى معيشة الانسان .

واقتربت الملكية الخاصة لذلك — فى حكم الاسلام — من الملكية العامة مع فارق واحد وهو : أن الحافز الفردى فى مباشرة المال لم يضعف ان لم يكن قد زاد وقوى .

ولعل تعبيرات القرآن فى نداءاته وتوجيهاته بخصوص المال — وهى تعبيرات فى صورة « الجمع » — لا تعطى فحسب هذا الميل العام فى شئون النفع بالمال وانما بالاضافة الى ذلك تحرص على تأكيده وعدم التراخى فيه .

● ولكن عندما واجه الاسلام **ملكيات « جديدة » طارئة — وهى ملكيات الغنائم والفىء أو ملكيات الأجانب التى وقعت فى أيدى المسلمين عنوة أو صلحا** . كرها أو تنازلا — كملكية خيبر وبنى النضير بالقرب من يثرب ،

وكملكية قريش بمكة بعد فتحها فى عهد الرسـول صلى الله عليه وسـلم ، وكملكية أرض العراق فى عهد عمر رضى الله عنه ــ اتخذ منها أحد موقفين :

اما قسمتها على بعض الأفراد

أو حبسها وابقاءها لبيت المـال لصـالح المسـلمين جميعا يديرها من كانوا فيها من أهل الذمة مع تقدير خراج عليها .

والفيصل فى ذلك كان صالح الجماعة وحدها . فان كان التقسيم لايترتب عليه تقدير انقسام فى الجماعة بسبب منفعة البعض وحرمان البعض الآخر كان ، والا عدل به الى الحبس والاحتفاظ بالملكية كلها الى الجماعة كوحـدة وككل وفى الواقع كان يعود الشـأن الى حجم الملكية وقيمة آثارها فى النفع كبرا وصغرا واتساعا وضيقا .

● كما واجه **أموالا ليست لأحد : هى أراضى الموات ، ومواقع المعادن، وآبار المياه ، وأماكن الكلأ والرعى ،** وغير ذلك مما لا يختص به أحـد معين وتختلف قيمته بالنسبة للجمـاعة فى حاجاتها وضروراتها اليه فى معايشـها وقوامها . والفيصل أيضا فى توزيعها واقطاعها لبعض الأفراد دون بعض أو فى بقائها نفعا عاما هو الصالح الذى يرتبط بتماسك الجمـاعة أو فرقتهـا ونزاعها .

واذن : شهد المجتمع الاسلامى ملكيات عامة بجانب الملكيات الخاصـة أو بعبارة أخرى استحدث ملكيات عامة للجمـاعة ولبيت المـال لم تكن على عهد قيام الدعوة الى الاسلام ، وظل يشهدها فى صورة الأوقاف الخيرية حتى الوقت الحاضر .

● كما واجه **احتمـالات الانحراف** فى مباشرة الملكيـات الخاصـة من المسلمين أنفسهم ــ أى من أفراد المجتمع الاسلامى ــ رغم تحديده لمعـالم الطريق السليم فى استثمار المال ومباشرة وظيفته . وهى احتمالات **((السفه))** التى تكون عن قصور فى ادراك الوظيفة العامة للمال ، وهى وظيفة نفع المجتمع ككل وربط قيامه به فى أى يد كان ــ فأمر بابعاد مبـاشرة المـالك لمـا يملك، ويكتفى بالانفاق منه من غلته فى مأكله ومشربه .

● والفقه الاسلامى بعـد ذلك يرى : أن ((**الحربى**)) ــ وهو عـدو المسلمين المتربص بهم ــ يجوز للامـام أن ينزع ملك المـال من يده ويقطعه لبعض أفراد المسلمين أو يبقيه ملكا عاما لصالحهم جميعا .. كما لا يجـوز أن يقطعه مما يجوز أن يقطع المسلمين منه . لا أرضا يحييها ، ولا منجما يستغله، ولا مرفقا عاما يستثمره ، ولا أى مصدر من مصادر الثروة يقوى به شـوكته ويزيد عن طريقه أصراره فى عدوانه وعناده .

كما يرى اذا اغتصب الحربى مالا للمسلمين واستثمره كأرض زرعها فانه فضلا عن أنه لا يملكه لا يجوز أن يأخذ غلته : ولو قدر من اغتصب منه على رد المغصوب لا يعطى الغاصب نفقة ما أنفق فى استثماره . والأصل : اذا كان الغاصب غير حربى أن يعطى ما أنفق دون الثمرة نفسها عند الاسترداد .

ويخلص الوضع كله فى شئون المال — فى نظر الاسلام — الى اعتبار المصلحة العامة للأمة والجماعة ، حفاظا على تماسكها وابقاء على سلامة قيمها ، وهى قيم الرسالة التى قامت الأمة الجديدة من أجلها .

* * *

وما واجهه الاسلام بالأمس البعيد من أمور طرأت فى جانب الملك والمال، يواجهه المجتمع الاسلامى اليوم فى عهدنا الحاضر ...

يواجهه مجتمعنا لا بسبب أنه انتصر فى سبيل الدعوة ودخل فى دين الله أفواج من الناس على نحو ما مضى . وانما بسبب أنه اعتدى عليه من عدوه فسلبه أرضه وماله ، وسخر أهله واستذلهم ، وأخذ ينهض ويقوى ليدفع جورا ويرد مغصوبا ، وينصب هامته ويسعى سعى الحر الكريم فيما يملك ، ويرى رأى المختار فيما يواجهه من أحداث الزمن .

يواجه المجتمع الاسلامى المعاصر :

● **رؤوس أموال أجنبية** : دخلت فنمت وربت بفعل السلب والسخرة ، ثم تحكمت وطغت فنقلت المال الى حيث أصبحت أضعافا مضاعفة ، وتبقى منه ما يقوم باستمرار التحكم والطغيان ، ونقلت السيادة والحكم الى أيد تعرف الانتقام منهم والاستصغار لشأنهم بسبب دينهم وحده ، وحولت التوجيه الى نفوس تضمر العداء وتحرض على الاذلال لهم ولدينهم على السواء .

« كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »(١)

● **وأموالا هى أخرى لمن ينتسبون الى الوطن** : تكونت لديهم فى ظروف وملابسات هى ظروف التحايل والخداع وملابسات الولاء والتمكين للعدو فى استمرار غصبه وسلبه لثروات الوطن . وتسخيره واذلاله لأفراد الأمة .

فأمام المجتمع الاسلامى المعاصر ، الأجنبى المستعمر ، والموالون له فى باطنهم ، وأدعياء الاستقلال فى ظاهرهم ، وهم أقوياء بالمال والسياسة ،

---

(١) التوبة : ٨

والاحتكار والتسخير . وهم ليسوا عندئذ أقل خطرا من « الحربى » الذى عزله الاسلام عما فى يده من مال ، وحذر من التعامل معه ، اتقاء لفتنة وصونا لسيادة الجماعة والأمة .

نظام الارث :

واذا كان وضع المال فى يد مالكه — تبعا لنظرة الاسلام — لايصل الى « تكديس » بالمعنى الذى يسعى اليه نظام الرأسمالية ويعيبه النظام الاشتراكى وذلك بفعل الايمان بالله .. فان نظام « الارث » كما تخططه الآيات القرآنية كفيل باعادة توزيع ما جمع وتفريق ما تكاثر بالمجهود البشرى السليم لمن حصل المال ونماه ..

وربما لم يأت القرآن بنظام تفصيلى فى موضوع من الموضوعات التى أتى بها مثل ما فعل فى موضوع الارث ... مما يجعل المؤمنين بالاسلام أمام أمر محدد بالوصف الدقيق الكاشف كالذكر والأنثى ، والأم والزوجة ، والولد والجد .. والرقم الرياضى الذى لا يقبل الاحتمال : كالنصف ، والثلث ، والربع ، والسدس ، وبذلك يكون تنفيذ هذا النظام فى حياتهم تنفيذا يستتبع حتما آثاره الموحدة ، وهى تلك الآثار التى تحد من « التكاثر » فى المال وتزهد فى التهالك عليه . لأنه يعود فيتوزع من جديد بعد تجمع ، ويستصغر بعد أن يتعاظم ، والأهل وان كانوا أسرة سيصبحون جيرانا قريبين أو بعيدين . وأن كانوا من أصل واحد فسيصير أمرهم الى فروع متفاوتة .

ونظام الارث فى البلاد التى تكون فيها النظام الرأسمالى الحديث ، وهو النظام الذى يقوم على تكديس المال فى أيدى قلة — نظام تاثر بالنظام الاجتماعى السابق عليه ، وهو نظام الأشراف والنبلاء . فكما أن « لقب » الأسرة يورث الى أحد أبنائها فكذلك المال كله يورث الى واحد منهم . وهو اذن يقوم على « المحافظة » على المال المكدس ، بينما النظام الاسلامى يقوم على « تفتيته » .

والتفتيت فى نظام الارث الاسلامى يستهدف الرعاية الاجتماعية لأفراد الأسرة بجانب ما يستهدف من حث على العمل والسعى دون اعتماد على مدخر موروث . وهو هدف أصيل بالنسبة لانسانية الانسان . لأنه عند التفتيت بالميراث سيقل نصيب كل فرد عن المجموع ، وبالتالى ربما تقل الخدمات التى كانت تصيبه فى حال وجود المورث بسبب المال المتجمع فى يده . وبذلك يضطر اما للمحافظة على المستوى المعيشى الذى كان له أو يكافح فى سبيل وجوده اذا لم ينل من الارث ما يشبع . وبذلك يباشر انسانيته فى السعى والعمل ، بدلا من أن يلغيها ويعتمد على المدخر الموروث له وحده . وبالاضافة

obeikandi.com

الى ذلك سيكون سببا فى عملية « الاندماج » بين أفراد الأمة ويحول دون وجود « طبقة » أو دون توارثها .

وهذا بخلاف ما يستهدفه نظام الارث الأوروبى المشار اليه ، فان المحافظة على « اللقب » هناك فى النظام الاجتماعى للأشراف والنبلاء كان يقصد منه التخليد « الشخصى » و « الفردى » لرب الأسرة ، وكذلك قصد من نظام الارث فى المال . وبذلك تبقى الأسرة مرتبطة باسم الشخص عن طريق لقبه أو ماله . وهذا الهدف أقرب الى الوثنية وعبادة الأشخاص فضلا عن أنه سيذكر « بالطبقية » بين أفراد الأسرة . فى صلتهم بغيرهم وبالتالى سيحول دون « الاندماج » فى أسر أخرى وأفراد آخرين عن طريق المصاهرة أو المشاركة فى العمل .

* * *

وهنا يتضح تماما أن « المال » فى الاسلام وظيفته اجتماعية غير فردية ، وأنه لا يقصد لذاته ، وانما لأداء خدمات اجتماعية عن طريقه . وما كان للاسلام من نظرة الى الثروة والمال ، ووسيلة للتحصيل والتنمية والاستثمار ، وسبيل للتخفيف من أثر المال على النفوس كى لا تفتن به ونظام لتوارثه وتوزيعه . هو **« اتجاه اجتماعى »** Social Trend ولكنه يختلف عن الاتجاه الاشتراكى المعاصر فى صوره المتنوعة . فهذا الأخير كان « رد فعل » لنظام « التكديس » فى الرأسمالية الحديثة ولذلك يطالب « باعادة توزيع الثروة القومية » . ويتنوع فى اعادة التوزيع بين الغاء الملكية الخاصة الغاء كليا بالتأميم ونقل الملكية الى القطاع العام ، أو المشاركة فى الادارة ، والرقابة ، والعائد .

بينما يتميز الاتجاه الاجتماعى الاسلامى :

● **بأنه يحول أصلا دون « تكديس » الثروة بالمعنى المتحقق فى النظام الرأسمالى .** وذلك :

أولا : بفرض الزكاة

ثانيا : بالحث على الانفاق فى أوجه المصلحة العامة .

ثالثا : بنظام الارث عن طريق « التفتيت » للمال الموروث .

ورابعا : بتحريم الربا تحريما قاطعا لا شبهة فيه .

● **كما يدفع الى تحقيق الوظيفة الاجتماعية للمال** . وهذا :

● **بالحث على « الاعتدال » فى الانفاق منه** . وكى يبقى منه فائض للغير ، ولا تتجه النفس لعبادته .

● ومنع أن يميل الوضع الى الاسراف أو التقتير **باتباع الوسائل التى تكفل الأمان للفير فى عدم استغلال ضعفه وحاجته** عند السعى لتحصيل المال أو استثماره .

فاذا صار الوضع فى المجتمع الى « تكديس » المال وعدم مباشرة المال لوظيفته الاجتماعية ، طلب الاسلام حينئذ من المسلمين جميعا — وفى مقدمتهم ولى الأمر — حمل أنفسهم على اتباع أوامر الله وتجنب نواهيه .

وأوامر الله ونواهيه فى جانب المال : البعد به عن أن يكون غاية فى ذاته ... ومن ثم يجب على ولى الأمر ازالة المنكر ورفع الضرر بما يحقق اعادة التوازن ورعاية المصلحة العامة .

ولا أدل على أن هدف نظام الارث هو الحيلولة دون تكديس المال فى يد قلة — من ترغيب القرآن الكريم فى الوصية ، على نحو ما جاء فى هذه الآية :

« كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين »(١)

فقد رغب هنا بالتعبير : بـ **« كتب عليكم »** فى الاخراج من المال فى اللحظة الأخيرة من حياة صاحب المال ، زيادة على ما حثه عليه طوال حياته من الانفاق فى أوجه الصرف المختلفة لمصلحة الجماعة وذلك حتى يقلل المتروك لورثته الذين سيكونون امتدادا له ، والذين أمامهم بحسب العادة فرصة واسعة لتنمية المال عن طريق سعيهم الانسانى وعملهم المشروع فيه .

وجعل ما يخرج من المال عن طريق « الوصية » بمثابة الحق الواجب أداؤه كما جعل القيام به صفة من صفات المتقين ، فقال فى آخر الآية : : **« حقا على المتقين »** .

ولتأكيد المعنى من الوصية من أنه لتحقيق هدف نظام الارث — وهو الحيلولة دون التكديس — جاء فيما يشبه الاجماع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح قوله : « لا وصية لوارث » .

اذ لو كان يراد من الوصية أن تكون لوارث تسبب المورث فى حياته ووجوده أصلا لأخلت الوصية بالغاية من نظام الارث ، وكانت من أسباب « التكديس » بدلا من المساعدة على « التفتيت » فتضاد الارث وتقاومه .

---

(١) البقرة : ١٨٠ .

والحديث ليس مقيدا للآية ... لأن ما جـاء فى « الآية » من الوالدين والأقربين — وان كان الوالدان من الورثة — لم يتسبب المورث فى وجودهما وفى حياتهما . بل على العكس كان الوالدان هما السبب فى وجوده هو .

و « الحديث » هنا كذلك معنـاه مطلق ... أى أن المنع فيه لا يرتبط بعدم موافقة بقية الورثة . كما يفهم بعض الفقهاء . لأن موافقة الورثة عندئذ على الوصية لوارث منهم تعارض الهدف الأصيل لنظام الارث . وهو حـدود معينة ومحددة . اتباعها طاعة لله . والخروج عنها مخالفة لما أراده الله :

« تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسـوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين »(١) .

والوالدان لا يفترقان اطلاقا عن الأقربين وان كانا من أصحاب الحقوق فى نظام الارث ، لأن العبرة فى أنهما ليسا فى امتداد السلسلة التى خرجت عن المورث . فاعطاؤهم عن طريق الوصية لا يؤدى الى تكديس فى المال وان أدى الى مزيد من رعايتهما . فحياتهما بحسب العرف ليست طويلة ، ومجهودهما فى سبيل السعى لتنمية المـال ضعيف أو منعدم ثم المـال الذى يؤول اليهما — لو بقى — سرعان ما يتفتت من جديد على آخرين ليسوا من سلسلة المورث الذى أوصى لهما بمقتضى نظام الارث نفسه .

والقرآن يظل بذلك طليقـا لا يقيد آياته الا بعضها بعضا . كمـا يبقى الحديث على ظاهره من عدم جواز الوصـية لوارث ، دون حاجة الى قيـد آخـر .

والفقهاء الذين نظروا الى اقرار بقية الورثة للوصية لوارث منهم ، أو الى عدم اقرارهم راعوا المحافظة على الود فى العلاقات بين الورثة جميعا ، وعدم ايجاد فجوة بين أعضاء أسرة واحدة خرجوا من ظهـر رجل واحـد . ولكنهم فى الوقت نفسه أغفلوا استصحاب الهدف الأصيل من نظام الارث عند هذه النظرة .

وحديث سعد بن أبى وقاص الذى يروى على هذا النحو :

« جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى من وجع اشتد بى . فقلت : يا رسول الله ، انى قـد بلغ بى من الوجع ما ترى . وأنا ذو مال ، ولا يرثنى الا ابنة لى !. أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا ! . قلت : فالشطر ؟

---

(١) النساء : ١٣ . ١٤

قال : لا ! قلت : فالثلث ؟ قال : « الثلث . والثلث كثير . انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

ويحدد اطار الوصية عند الموت بمقدار الثلث من مال المورث من يبغى فحسب سد حاجة الورثة من الارث ، كما تسد حاجة غيرهم عن طريق الوصية من المال المتروك نفسه . والعدل ذاته يقضى أن لا تسد حاجة لواحد على حساب حاجة آخر ، طالما هناك دوافع مشتركة لسد الحاجة ، ان لم تكن هذه الدوافع فى طرف أقوى منها فى طرف آخر .

فالقضية هنا قضية « العدل » فى المجتمع ، وليست قضية « الهدف من نظام الارث » اذ لو خرج عن ماله كله فى مصلحة عامة أشد احتياجا وأكثر اتساعا لم يكن آثما فيما خرج عنه ، ولم يكن مجحفا فى حق ورثته .

ولو أن الورثة كانوا أقوياء فى ايمانهم مثل قوة مورثهم فى ايمانه بالله حين خرج عن ماله كله فى سبيل الله لرحبوا بما فعل : لأنهم أيضا مطالبون بالانفاق فى سبيل الله والمصلحة العامة بحيث تتوفر أسباب القوة والمنعة للأمة .

ولكن الوقوف بالوصية عند حد الثلث استهدف عدم اغضاب الورثة — على حسب الطبيعة البشرية — فى لحظة حرجة بالنسبة للمورث ، وهى لحظة الضعف فى نهاية أمره ولحظة توديعه من حياة الدنيا الى حياة القبر .

ولم يستهدف التحديد بالثلث وعدم الزيادة عليه — كما جاء فى الحديث — المحافظة على « الثراء » الموروث ليكون مقدمة لنمو جديد فيه يتحول الى « تكديس » فيما بعد . فالأفضل فى نظر الاسلام أن يسعى الانسان لانشاء المال وتحصيله من أن يرثه ويحيا فى ظله .

* * *

والاسلام اذن — بنظامه المالى فيما أوجبه ورغب فيه ، وحرمه وطلب تجنبه فى التصرفات المالية ، وفيما أصل عليه ما أوجب وطلب أو حرم ودعا الى تركه — استهدف بقاء منفعة المال « شركة » بين أفراد المجتمع ، بحيث لا يصل أمرها الى « تكديس » فى يد قلة ، وحجب عن الكثرة كما فى نظام الرأسمالية ، وبحيث لا يستدعى الأمر الى اعادة توزيع من جديد تحقيقا لمعنى « العدل » ورفعا للظلم والغبن . كما تطلب الاتجاهات الاشتراكية ، وكان الاسلام أفضل وأحسن وأوفى منها نظاما .

* * *